

الأبيض والأسود

٥٠
مليما

روايات عالمية

العدد ٤٢٢

١١ مارس ١٩٦٧

الأبيض والأسود

من أروع قصص الاضطهاد العنصرى فى أمريكا

للكاتب الأمريكى

ارسكين كولدويل

ترجمة

محمد محمود الأهوانى

الفصـــل الأول

كان الشريف «جيف ماكيرتن» يغط في نوم عميق مع زوجته في الطابق العلوى من مبنى السجن فى « اندرو جونز » ، عاصمة المقاطعة ، عندما ايقظته الضجة الصادرة عن شخص يطرق الباب . وكان ثقيـل النوم ، فلم يكن يوقظه قبل بزوغ ضوء النهار فى الصــباح غير ضـجيج اكثر ارتفاعا من المعتاد ، او هزة من زوجته .

وكان يقيم هو وزوجته في اربع غرف مريحة تقع في الطابق الثـانى من القسم الامامى لمبنى السجن المشيد بالطوب الاحمر . وكانت الغرف الواقعة تحته مباشرة فى الطابق الاول ، تشغلها المكاتب ، وتوجد خلفهـا غرفة طويلة تشبه المخزن مليئة باقفاص السجناء التى ترتفع حتى السقف. ويوجد بين قسمى المبنى باب ثقيل من الالواح الحديدية ، وكـذلك باب للحريق مصنوع من الصلب السميك ، ويقضي القانون بان يحتفظ شريف المقاطعة بمقر اقامته الدائم فى مبنى السجن ، حتى يكون فى مركز افضـل لمراقبة السجناء .

ولم يكن يزعج الشريف «جيف ماكيرتن» ان يقيم في ذلك المكان ، لانه لا يدفع فى مقابله اجرا ، كما ان الحجرات كانت طلقـة الهواء فى الصيف ، دافئة في الشتاء . بيد ان زوجتـه «كورا» كانت تشـعر ببعض الخجل لاقامتها تحت نفس السقف مع السجناء . وفي كل مرة كانت تطرق فيها هذا الموضوع ، كان الشريف «جيف» يقول لها ان الذين في داخل السجن لايختلفون عن اولئك الذين في الخارج الا في انهم معتقلون . وكان السجناء المقيمون فى السجن ، بشكل عام ، حفنة من الزنوج ، القى القبض عليهم لتداولهم قطعا مزيفة من النقود من فئة عشرة السنتات وربع الدولار ،

وبضعة أشخاص انتهكوا حفلا مقاما في الكنيسة مساء السبت ، أو فضوا جمعا من الناس يقومون بشي السمك ، وذلك لمجرد اللهو ، وبين الحين والحين اثنان أو ثلاثة ممن يقفزون فوق الاسوار من كلا الجنسين .

وتوقف الطرق على باب غرفة النوم برهـــة ، واستلقى الشريف «جيف» مستيقظا ينصت عساه يسمع الطارق ، مهما يكن اسمه ، وهـو ينصرف ، لقد أغضبه أن يوقظ هكذا من نومه العميق في منتصف الليل ، لقد عانى الكثير من المتـاعب في اختيـار مســاعدين له يعتمد عليهما ، ويستطيعان التصرف في أى شيء يحدث أثناء ساعات نومه . والى جانب ذلك ، لايوجد في السجن غير سجين واحـد ، وهو زنجى من «الجيتشي» يدعى «سام برنسون» ، قبض عليه كالمعتاد لبيعه سيارة مستعملة مرهونة، ولم تكن السيارة القديمة تساوى أكثر من ثمانية دولارات أو عشرة على الاكثر ، وكان الشريف «جيف» على استعداد لاطلاق سراح «سام» ، على أية حال ، في مدى أيام قلائل .

وتقلبت «كورا» على الفراش ، وبدأت تهزه وقالت ، ناهضـة على ركبتيها وهى منهمكة في ايقاظه ، وكأنها منهمكة في غسل الملابس فوق لوح الغسيل :

« جيف ، لقد حدث شيء . »

وكانت «كورا» امرأة ضئيلة الجسم ، تزن اقل من مائة رطـل . وهى ند له عندما تتمكن من استعمال لسانها ، ولكنها كانت تعلم ان محاولة التحدث اليه وهو نائم أمر لاجدوى منه ومضيعة للجهد ، وكان الشريف رجلا ضخما ، طويل القامة مكتنزا ثقيلا ، يقرب وزنه من الثلاثمائة رطل ، وفي الشتاء يتناول مزيدا من الطعام ، مضيفا الى وزنه خمسة عشر أو عشرين رطلا أخرى . وقبضت «كورا» على رقبته وكتفه ، وأخذت تهزه كأنها تنفض سترة عمل تلوثت بالطين . وقالت :

« استيقظ ياجيف ! استيقظ في هذه اللحظة ! لقد حـــدث شيء ياجيف ! »

فسأل متثاوبا : «ماذا حدث ؟ في أى وقت من الليل نحن ؟ »

«لايهم الوقت . استيقظ كما قلت لك . »

« انمن حق المرء ان ينام مهما كان المنصب الذى يشغله » .

فاخذت تهزه فترة أخرى من الزمن ، وكأنها تتبع في ذلك مقياسا ، وقالت :

« استيقظ ياجيف . استيقظ وحرك نفسك » .

ومد يده ، وأضـاء النور . وكان في اسـتطاعته أن يرى ســاعته الموضوعة على المائدة أسفل المصباح دون حاجة الى أن يرفع رأسه . كان الوقت الثانية عشرة والربع .

« لو كان سام برنسون قد فر من سجنه ، واحد هذين النائبين عنى جاء هنا ليوقظنى في هــذا الوقت من الليــل ليخبرنى بذلك ، فاننى سوف ... »

وقالت « كورا » مخففة من قبضتها على جسده ، لتعود الى الجـلوس على عقبيها :

« صه ياجيف ، وكف عن هذه الثرثرة . ليس هذا بالوقت المناسب لتثير شجارا مع نائبيك أو مع أى شخص آخر ، فقد يكون شيء قد حدث في مكان ما . ومن الممكن أن يحدث أى شيء في هذا الوقت من الليل » .

وانبثقت ضجة أخرى عند الباب ، أكثر ارتفاعا عن ذى قبل . وبدا هذه المرة كأن شخصا بدأ يضرب الباب بقدمه . واستيقظ بعض ذباب البيت الملتصق بالسقف ، وأخذ يهبط الى الفراش .

وتساءلت « كورا » بصوتها ذى النبرات العالية :

« أهذا أنت يابرت ؟ »

وانتصبت فوق ركبتيها ، وهى تضم الى صــدرها قميص نومهـا الحريرى الوردى : «مالامر يابرت ؟ »

وقال «برت» :

« أجل ياسيدتي . انني أبغض ان اوقظ الشريف جيف ، ولكنني رأيت من الافضل ايقاظه » .

وضرب الشريف «جيف» بكفه ذبابة تتواثب زاحفة على جبهته . وأيقظه هذا بدرجة اكبر . وتقلب ثم جلس على حافة الفراش . وتحرك ببطء ، واصدرت لوالب الفراش وقوائمه الخشبية صريرا تحت وقع وزنه الثقيل ، وكأنها ستنهار من شدة الضغط الواقع عليها .

وصاح ، وقد أصبح أخيرا في يقظة كاملة :

« ماذا اصابك في هذا الوقت من الليل يابرت ؟ مامعنى احداث كل هذا القدر من الضجيج في منتصف الليل ؟ ألا تعلم انني في حاجة الى النوم ؟ كيف استيقظ نشطا في الصباح عندما تتصدع راحتي الليلية كلها ؟ » وضرب بكفه ذبابة اخرى بوحشية ، وقال : «ماالامر ؟»

ونهضت «كورا» ، وأخذت تجرى عبر الغرفة بخطواتها الضيقة القصيرة . وتناولت رداءها المنزلي المزين بزهور صفراء من على المشجب الواقع خلف الباب واندست فيه . وقالت عائدة الى الفراش ، وهي تحكم الرداء حول جسمها وتجلس : «ماذا تريد من مستر ماكيرتن يابرت) »

فقال باضطراب : « أخبريه يامسز ماكيرتن انني ارى انه من الافضل ان يرتدي ثيابه ويهبط الى الطابق السفلى في الحال . ان الامر هام ».

فقال الشريف جيف وهو يدمدم لنفسه :

« هذه هي مصاعب الحياة السياسية . كل شيء يبدو هاما ، فاذا تفحصته بامعان ، تبين انه كان من الممكن ارجاؤه » .

وقالت كورا وهي تلكزه بكوعها في جنبه : « كف عن هذه الهمهمة ياجيف . برت يقول ان الامر هام » .

« هذان النائبان الذكيان ، برت وجيم ، يظنان الامر هاما في كل مرة يقبض فيها على زنجي يسطو على كوخ دجاج » .

فقالت كورا وهي تقفز على قدميها ، واقفة امامه ، وفي عينيها نظرة غاضبة :

« انهض وضع رداءك . أتسمعني ياجيف ؟ »

ونظر الى زوجته ، وضرب بكفه ذبابة تتواثب على قفاه . وصاح :

« برت ! لماذا لم تنتظر حتى الصباح ؟ اذا كان لديك في الطابق السفلى سجين جديد فاحبسه ، وسيكون أول مااهتم بامره في الصباح بعد ان تتاح لي فرصة تناول طعام الافطار » .

وانتظر ان يقول برت شيئا ، الا ان الصمت كان يسرين خارج الغرفة .

« واذا كان احدكما ، أيها الرجلان الذكيان ، قد التقط فتاة زنجية داعرة من احدى الحارات ، وجاء يوقظني على هذا النحو ليبلغني ذلك ، فانني أقول لك انني ساقدم على امور لاتخطر ببال احد . انني على أية حال أريد أن تتركا أولئك الفتيات الزنجيات وشانهن . فقد ظلت تحدث معهن امور كثيرة طوال هذا الصيف في غرفة الاقفاص . واذا لم تكفا عن هذه الامور ، فسوف أطلق عليكما الرصاص ، أيها النائبان ، باسرع من نباح الكلب . واذا كنتما لاتستطيعان انشاء علاقات مع الفتيات البيض ، فاذهبا الى أى مكان آخر تضاجعان فيه الفتيات الزنجيات . اخبر جيم كاوتش انني قلت ... »

فقالت كورا بحدة ، وصوتهايطعنه كانه وخزات دبوس : «جيفرسون»!

فقال بخشونة : «حسنا» .

وقال برت بسرعة : « ليس الامر من هذا النوع على الاطلاق هذه المرة ياشريف جيف . يحسن بك ان تهبط الى الطابق السفلى فورا » .

« هل فر سام برنسون من سجنه بعد كل مافعلته من اجله » .

« لا ياسيدى . ان الزنجي برنسون لايزال في القفص رقم ٣ . وهو يغط هناك في نوم عميق » .

وجاءت كورا ، وجلست على الفراش بجـواره ، وهى تضم رداءها المنزلى المزين بالزهور الصفراء باحكام حول جسدها ، وكانها لاترغب في أن يلامسه أى جزء منها . ولم تتكلم على الفور ، ولكن الشريف جيف كان يعلم من الطريقة التى تنظر بها اليه انه سيستمع منها الى حديث طويل قبل أن يغادر الغرفة . وألقى برأسه بين كفيه ، وانتظر البداية . ووصل الى سمعه صوت برت وهو يهبط الدرج .

وأخيرا تساءلت ، وصوتها يعلو وينخفض بما تبديه من رقة واهتمام : «جيف» ان شيئا لايربطك أنت نفسك بهـاته الفتيات الملونات ، أليس كذلك ؟ ان هذا لكفيل بأن يجعل المهانة تقضي على ياجيف . اننى لاأستطيع أن أحتمل هذا . ولست أدرى مايمكننى أن أفعله فى حالة كهذه» .

وعندما توقفت عن الكلام ، هز رأسه ببطء من ناحية الى الاخرى . وأمكنه أن يرى بركن عينه ساعته الموضوعة فوق المائدة . لقـد سـمعها تتحدث في هذا الموضوع في الماضي مرات عديدة لدرجة أنه يعرف الزمن الذى ستستغرقه لتعبر له عما يدور في ذهنها . واسقط رأسه مرة أخرى بين كفيه في ارهاق ، وأغمض عينيه في هدوء . ان ذهنه يشعر بالراحـة لقدرته على اغماض عينيه في وقت كهذا ، والتفكير في أمور بعيدة عمـا يسمعه .

«كانت هناك فتاة ملونة مسجونة منذ ليلة السبت الماضي حتى صباح الاثنين ، ياجيف فهل ذهبت الى غرفة الاقفاص أثناء وجودها هناك ؟ »

وهز رأسه .

وبدأت كورا تتحدث مرة أخرى ، عندما طرق برت الباب فجاة .

« أيها الشريف جيف ، يحسن بك أن تأتى سريعا» .

فتساءلت كورا ، وهى تهب واقفة :

« ماذا حدث يابرت ؟ »

« لقد وقعت بعض الاضطرابات بالقرب من «فلورى برانش» . فاحد

الزنوج هناك في مازق . وقد خرج حشد من الرجال البيض يبحثون عنه . والامر يبدو شديد الخطورة يامسز ماكيرتن . الا ترين انه يجدر بالشريف جيف ان ينهض ويهبط الى الطابق السفلى لينظر في الامر ؟ »

وتاوه الشريف جيف تاوها يدل على التعاسة . فمعنى هذا أن عليه ان ينهض ويرتدى ثيابه ويذهب لصـيد السـمك . انه لايدرى ان كان يوجد على قيد الحياة أشد بغضا منه لصيد السمك .

وصاحت زوجته وهى تركض نحوه وتهزه بأعنف ماتستطيع : « هل سمعت ماقال برت ياجيف ؟ »

وتأوه من أعماقه .

وقال بحزن : « لقد تقدمت بى السن قبل الاوان . وهذا مافعله بى تولى منصب سياسي . لست الآن غير عجوز غبى » .

ونهض وهو يفرد ساقيه ، بينما ثقل جسمه يتجـه الى التوازن . وتناول ملابسه . انه يبغض مرأى السمك . ولم يتناول السمك في طعامه قط . وهو على استعداد لان يبتعد عن طريقه بعدة أبنية كى يتجنب رائحة السمك . ولكن الذهاب لصيد السمك هو الوسيلة الوحيدة للافلات ممـا تثيره المنازعات من أمور . لقد كان عليه أن يذهب فى رحلات عديدة لصيد السمك طوال الاحد عشر عاما التى قضاها شريفا لمقاطعة جولى ، لدرجة انه يعلم عن الصيد باستخراج الديدان وباستخدام الذباب أكثر ممـا يعرف اى شخص آخر في هذا الجزء من العالم . وكان عليه أن يرغم نفسه على صيد السمك باستخدام كل الوسائل المعروفة . فقد أوقعـه بواسطة الانشوطة المربوطة في طرف سلك ، وصاده بواسطة الشبكة ، وأطلق عليه النار من بندقيته ، وكان عندما يعجز عن اصطياده بأية وسيلة أخرى ، يلجأ الى نسفه بالديناميت .

وقالت كورا : « جيف ، ان أفضل مكان يناسبك في وقت كهذا هـو جدول « لوردز كريك » لكى تصطاد السمك .

واستدار نحوها ، وشفتاه ترتجفان ، وصاح :

عقابا دون حكم يستند الى القانون أو شيء من هذا القبيل ، فلا القاضي بن الان ولا أى شخص آخر فى مقاطعة جولى سوف يتمكن من أن يضع يده على مايكفى من الخيوط أو الحبال ليحتفظ لك بمنصبك . ان الناس يكونون ، عندما يحين وقت الانتخابات ، متقلبين مثل رياح الجنوب في شهر نوفمبر » .

ووضع ساعته في جيبه وتحذير زوجته يرن في اذنه . ودون أن ينتظر لحظة اخرى ، تحرك في تثاقل يعبر الغرفة متجها نحو الباب . وكان كل شيء يقع عليه البصر يبدو ضئيلا تافه الشأن اذا ماقورن بجسده الضخم وصرت الارض في ألم تحت تأثير وزنه الثقيل .

وعندما رأته كورا يتحرك عبر الغرفة في بطء ، لم تملك أن شعرت نحوه بالاشفاق . لو أنها استطاعت أن تضع يدها على الشخص المسئول عن هذه الاضطرابات لجعلته يشعر بالندم لانه جاء الى هذه الحياة .

وجرت اليه وهو يضع يده على مقبض الباب . وقالت تحثه وهى تربت ذراعه :

« يجب أن تأخذ معك تلك الزجاجة التى تحوى زيت البعوض ، والتى تحتفظ بها في درج مكتبك في الطابق السفلى . انها الزجاجة التى أخذتها معك الى لوردز كريك في المرة الماضية . وعليك أن تدلك به وجهك كله ورقبتك ياجيف . ان البعوض فى لوردزكريك أسوأ هذا العام منه فى اى وقت مضي . واعتن بنفسك جيدا ياجيف » .

وقبضت على ذراعه بشغف .

وغادر الغرفة دون أن يتلفت حوله مرة أخرى . وتمنى بينه وبين نفسه ، وهو في طريقه هابطا الدرج ، أن يشنق هؤلاء الناس ذلك الزنجى الذى يطاردونه ، ثم يخبرونه بالامر بعد أن يكون كل شيء قد انتهي .ولن تكاد توجد أية مخاطرة سياسية عندما يعود بعد أن يتم الشنق ، ويقول ان القانون يجب أن يطبق ويأخذ مجراه ، لانه لن يوجد في ذلك الحين ، في تسعة وتسعين حالة من بين كل مائة حالة ، من يقدم على التعرف على

فرد واحد من الغوغاء . ولكن هناك حفنة من الرجال والنساء في المقاطعة كانوا حريصين دائما على تذكيره ، كلما حدث تهديد بشنق أحد الاشخاص طوال الاحد عشر عاما التى قضاها في منصبه ، بان واجبه المقدس يقتضيه أن يحمى المتهم حتى يمكن تقديمه للمحاكمة أمام احدى المحاكم . وفي آخر مرة شنق فيها زنجى في مقاطعة جولى منذ حوالى ست سنوات ، ذهب هو لصيد السمك بمجرد أن جاءه نبأ يقول ان حشدا من الرجال البيض يبحثون عن الزنجى ، وظل مقيما في لوردز كريك خمسة أيام . وعندما عاد كان الزنجى قد مات ، وانتهى الامر بأكمله ، وهدأ كل شيء . ولكن بعض الاشخاص اتهموه منذ ذلك الحين بأنه يهمل واجبه . وهؤلاء الرجال والنساء هم الذين يستطيعون أن يسببوا له الكثير من المتاعب اذا ماشنق فى المقاطعة شخص آخر . ولم يكلفه الأمر منصبه تلك المرة .

وصاح وهو يخفف من ثقله أثناء هبوطه الدرج عن أحد قدميه ثم عن القدم الاخرى .

« برت ! هل تسمعنى يابرت ! »

وجاء برت يركض من المكتب ووقف أسفل الدرج . وقال وهو يتبعه خلال الردهة ثم داخل المكتب : « ان الامر يبدو سيئا ياشريف» .

وتساءل وهو يقف فى وسط الغرفة ، وعيناه تطرفان في الضوء الباهر من أثر النعاس : « ماهذا ؟ ماالذى يبدو سيئا ؟ »

« تلك الاضطرابات الحادثة في فلورى برانش » .

« حول أى شيء قامت هذه الاضطرابات ؟ »

« لم أتمكن بعد من معرفة الكثير . وقد حاولت أن أتصل تليفونيا بجيم كوتش لاحصل على مالديه من معلومات ولكن زوجة جيم أخبرتنى انه غادر المنزل منذ ساعة ولم يعد بعد » .

« سوف ينالكما منى ، أنت وجيم كوتش مالا يخطر ببالكما ، اذا اتضح أن هذا كله ليس شيئا يذكر ، وانما هو مجرد أمر تافه » .

« انهم يقولون ان فتى زنجيا يدعى سونى كلارك اغتصب فتاه بيضاء هناك عند مغيب الشمس في الليلة الماضية » .

وظل الشريف صامتا برهة من الزمن . وسار نحو مكتبه ، والتقط بعض الاوراق ثم القاها مرة اخرى . وتساءل دون ان ينظر الى برت :

« ماهو اسم الفتاة البيضاء ؟ »

« كاتى بارلو » .

وجلس في تثاقل على المقعد أمام المكتب . وكان مقعدا اكبر من المعتاد له مسندان متباعدان بما يكفى لان يتسع المقعد لجسمه . ومال الى الخلف في حذر . وقال :

« بعض اولئك القوم الذين يقيمون في التلال الواقعة خلف فلورى برانش يربون فتيات لايعترفن أبدا بالخط الفاصل بين الالوان . وليس أمرا هينا مايقال عن اخوتنا البيض . ولكن كان يبدو لى دائما أن هؤلاء القوم لايوجهون اهتماما كافيا لخط الالوان . ومع ذلك ، فعلى الرجل الزنجى أن يكون أكثر حذرا ، حتى ولو كان الامر يتعلق باحدى هاتيك الفتيات البيض القاطنات هناك فوق التلال الرملية . لو ان الزنوج ..»

فقال برت : « عائلة بارلو تلك تقيم هناك » .

« ولكنها ليست من اسرة شب بارلو ، أليس كذلك ؟ »

« انها ابنته » .

وسقط فك الشريف جيف . وحملق في برت وهو يهز رأسه غير مصدق ، وانزلقت بعض الاوراق من على المكتب وتناثرت على الارض .

« بحق الانسان الحى ! ابنة شب ؟ »

وأومأ برت برأسه ايجابا .

وقال بعد برهة : « هذا سيء . انه حقيقة أمر سيء . ان شب بارلو ليس ممن يمكن استغفالهم . وقد قتل منذ مايقرب من تسع سنوات زنجيا

لمجرد انه كسر غير عامد مقبض آلة جز الحشائش . وقبل ذلك بسنوات قليلة قتل زنجيا آخر من أجل شيء اقل شانا من ذلك بكثير . وقد نسيت الآن ماهو هذا الامر . ان شب بارلو ليس بالشخص الذى يحتمل أمرا كهذا ، وخاصة اذا كانت ابنته هى التى اغتصبت » .

« وهذا ماكنت أحاول أن أخبرك به منذ ذهبت لاستدعائك أول مرة ياشريف جيف . وقد أردت أن أخبرك أن الامر هام . وقد قال جيم كوتش ... »

فقال وهو يهب واقفا على قدميه : « ولكنك لم تخبرنى أن الامر يتصل بشب بارلو . فهذا يجعل الامر مختلفا كل الاختلاف . اننى لعلى ثقة من انه ستحدث اضطرابات خطيرة ثقتى من أن الشمس ستشرق صباح الغد . بل لعل الاضطرابات قد بدأت بالفعل » .

وبدأ يملأ كيسه الجلدى بالتبغ من الاناء الزجاجى الموضوع على المكتب . وكانت يداه ترتجفان بشدة الى حد جعله يبعثر من التبغ فوق المكتب أكثر مما وضعه في الكيس . وعندما انتهى من ذلك ، ألقى على الارض بالطباق المبعثر بحركة واحدة من يده .

وبدا برت يقول : « ربما عندما يتصل جيم كوتش تليفونيا ... »

فقال وصوته يرتجف : « ربما لاشيء ! لاتوجد ربما فيما يتعلق بهذا الامر . ناولنى الشص من الخزانة . سأذهب لصيد السمك لبضعة أيام. وفي اثناء غيبتى ، اهتما انت وجيم بقدر ماتستطيعان بما يحدث من أمور. ولكن لاتفعلا شيئا دون أوامر صريحة منى . ومهما يكن مايقوله الناس ، فليس لكما الحق في الاقدام على أى شيء ، حتى ولو كان التلويح بعصا ، مالم تاتكم أوامر منى بذلك » .

فقال برت : « أجل ياسيدى الشريف جيف » .

وجذب جيف الى الخارج ثلاثة أو اربعة من أدراج مكتبه باحثا عن زجاجة زيت البعوض . وحينوجدها أمسك بها بين عينيه ومصباح الضوء .

وكانت مليئة الى نصفها بسائل يميل لونه الى الصفرة . واحكم اغلاق غطاء الزجاجة ثم اسقطها في جيبه .

« يمكنك أن تطلق سراح الرجل الملون سام برنسون فى غضون بضعة أيام ، ولكن اخبره اننى قلت انه اذا رهن آية سيارة قديمة مرة أخرى ثم عاد يبيعها فاننى ساذهب رأسا الى المحكمة لاستصدر ضده حكما يمنعه من المعاملات التجارية ، وسيقيده هذا الحكم من يديه ورجليه . ولا أريد كذلك أن أجد حجرة الاقفاص الخلفية مليئة بالنسوة الزنجيات عندما أعود . ففى المرة الاخيرة التى غبت فيها بضعة أيام ، وجدت عند عودتى فتاة زنجية في كل قفص تقريبا في السجن . وأبلغ جيم كاوتش اننى قلت ان عليكما أن تمارسا علاقتكما بالنساء في مكان آخر غير هذا . ولن أحتمل أن يتحول هذا السجن الى بيت للدعارة في كل مرة أدير فيها ظهرى . واذا حدث هذا مرة أخرى ، فسوف ينالكما منى أيها الولدان مالم يخطر لكما ببال » .

وقال برت : « أجل ياسيدى » .

الفصل الثانى

بينما كان برت يبحث في الخزانة عن الشص ، سار جيف ماكيرتن الى المدخل الامامى للمبنى ،واتجه ببصره الى أعلى يرقب الليل الذى تضيئه النجوم . وأحس بالوحدة في نفس اللحظة التى ترك فيها برت ، وسمع الباب السلكى يصطفق من خلفه . وكان يعلم أنه سيقضي في لوردز كريك أربعة أيام أو خمسة من أكثر أيام حياته احساسا بالوحدة .

وتمنى لو أنه استطاع أن يصحب كورا معه ، لكى تشعره بالالفه ، ولكنه كان يعلم أنها لاتقبل أبدا اقتراحا كهذا .

وهبط الدرج موجها بصره الى نوافذ غرفة النوم في الطابق الثانى . وكانت الغرفة لاتزال مضيئة ، واستطاع أن يرى شبح كورا وهى تتحرك داخل الغرفة . وكان يعلم أنها تنتظر لتتأكد من رحيله الى لوردز كريك .

وبينما هو يستدير ليتأمل النجوم مرة أخرى ، كانت هناك سيارة تهدر وسط المدينة قادمة فى الطريق الرئيسي ، وهى تنطلق بسرعة كبيرة . وعند المنحنى الذى يبعد بمبنى واحد عن السجن ابطأت السيارة فجأة وهى تطلق ، نتيجة احتكاك عجلاتها بالطوار ، صريرا يصم الآذان . وبعد برهة ، أصبح الليل ، في الاضواء الكاشفة التى انبثقت من السيارة ، أكثر توهجا من النهار . وتوقفت السيارة وهى تقفز من جانب الى الآخر وقبل أن يستطيع جيف الافلات بعيدا عن الانظار ، قفز من السيارة شخص انطلق نحوه :

« ياشريف جيف ! »

« أهذا أنت ياجيم ؟ »

« اننى سعيد لانك مستيقظ ومرتد ثيابك ، ياشريف جيف » .

« ماالامر ؟ »

وجرى جيم كوتش ، وهو اكبر نائبى الشريف سنا ، في المشي .وكان لاهث الانفاس . ووقف ينظر الى جيف وانفاسه تتلاحق بحثا عن الهواء.

وتمكن من ان يقول بصوت اجش من تاثير الانفعال : « لقد جئت لتوى من فلورى برانش » . وتوقف عن الحديث متنفسا بعمق عدة مرات قبل ان يستطيع ان يقول شيئا آخر : « لقد ظننت انك ربما لم تسمع بالاضطرابات التى حدثت » . والتقط نفسا عميقا وطهر حنجرته وقال : « ولم ارغب في المكوث هناك والتورط في الاضطرابات حتى أتاكد مما تعتزم عمله بهذا الشأن ياشريف جيف » .

ونظر جيف الى جيم في هدوء واتزان ، وقال : « انا ؟ اننى ذاهب لصيد السمك يابنى » .

وسارا في المشي الحجرى حتى المدخل وفتحا الباب السلكى . وبدأ التليفون الموضوع في غرفة المكتب يدق فجاة برنين حاد لايبعث على البهجة ودخل جيف الردهة ، ووقف عند باب المكتب . وكان برت قد التقط السماعة .

وقال صوت اجش صاخبا : «هل هذا مكتب الشريف ماكيرتن ؟ »

وقال برت وعيناه تدوران ببطء في محجريهما الى ان اصبحتا مسلطتين على وجه جيف مباشرة :

« أجل . نائب الشريف برت ستوفال يتحدث » .

وقال الصوت متسائلا : « اى نوع من مكاتب الشرفاء هذا الذى تديرون أيها القوم ؟ »

فتساءل برت وهو يعجب من يكون المتحدث :

« ماذا تعنى ؟ »

« من الافضل أن تخرج ماكيرتن من الفراش وتخبره أن ينهمك في البحث عن زنجي يدعى سونى كلارك ، والا فسوف احضر الى اندروجونز

وانتزع ماكيرتن من الفراش بنفسي . اننى اريد ان يلقى القبض على سونى كلارك ويسجن للمحافظة عليه . هل تسمعنى ؟ »

وتساءل برت منفعلا : «من الذى يتحدث ؟ من أنت ؟ ماأسمك ؟ »

« اننى بوب واطسون من فلورى برانش . لقد وجهت الى سونى كلارك تهمة اغتصاب فتاة بيضاء هى ابنة احد من يستأجرون أرضا منى . وسونى هو احد العمال في حقولى . اننى لاأريد أن تحدث أية اضطرابات هنا . ولو شنق سونى كلارك فلن يتبقى فى مزارعى اى زنجى حتى مغيب شمس الغد . وحتى اذا لم يلجأ بعضهم الى الفرار ، فسيكونون على درجة من الخوف تمنعهم من الخروج الى الحقول والعمل بها . وسيفسد محصولى باكمله . ولا تنس أن هذا هو موسم الحصاد . ولن أتمكن حتى من استئجار عمال من الخارج ، اذا ماشنق هنا أحد الزنوج . ابلغ ماكيرتن اننى اطلب منه ان ينهض من فراشه ويحضر الى هنا ليقبض على سونى كلارك ، ويأخذه الى اندروجونز ، او الى اى مكان آخر ، ويضعه في مكان محكم الاغلاق للمحافظة عليه حتى تخمد هذه الاضطرابات . لقد أعطيت صوتى لماكيرتن في آخر مرة يقدم فيها ليعاد انتخابه ، وكذلك زوجتى انتخبته هى الاخرى . ولكنه لن يحصل أبدا على اى صوت في هذا الجزء من مقاطعة جولى اذا لم يات الى هنا فورا ويفعل شيئا قبل أن يكون الاوان قد فات . لقد انتخب ، واصبح يتقاضى مرتبا اكبر مما يستحق لكى يقوم بعمل ما أخبرك به الآن . ابلغ ماكيرتن ان ماقام به من صيد السمك يكفيه طوال حياته ، واذا توجه الآن لصيد السمك مرة اخرى ، فسيكون هذا اكثر مما ينبغى . الى اللقاء ! »

ووضع برت السماعة بعناية ، وهو يخشي أن يعود الرنين الىالانطلاق مرة أخرى قبل ان يبتعد عن التليفون . وأعاد على مسامع جيف ، أثناء عبوره الغرفة ، كل كلمة تقريبا قالها بوب واطسون . واستمع اليه جيف بذهن مضطرب ، وهو يستند بثقله على اطار الباب .

ولم يقل احد شيئا لبضع دقائق ، بعد أن انتهى برت من حديثة .

ووقف جيم كاوتش في الردهة خلف جيف ، منتظرا بفروغ صبر ان يتصرف الشريف .

وحرك جيف جسمه المكتنز عبر الغرفة . وجلس متثاقلا على المقعد الكبير خلف المكتب . وتبعه جيم داخل الغرفة .

وقال ببطء ناظرا الى نائبه من تحت أجفانه الثقيلة : « جيم ، مثل هذه الأمور هى التى ظلت أحد عشر عاما تلهبنى بسياطها لتجعل منى هذا الشخص الغبى » .

وأوما كل من برت وجيم برأسيهما في عطف وأدركا انه ، في تلك اللحظة ، في أشد المواقف حرجا في حياته السياسية بأسرها . فمن ناحية يوجد حشد من مواطنى مقاطعة جولى ، اسماؤهم جميعا مسجلة في دفاتر الانتخابات ، ولهم حق الانتخاب ، وسوف يبذلون كل مافي وسعهم لاخراجه من منصبه لو انه اقدم على التدخل فيما يعتزمون من شنق سونى كلارك ومن الناحية الاخرى ، توجد جماعة صغيرة من الرجال والنساء ذوى النفوذ ، احدهم بوب واطسون ، سيفعلون اى شيء فى قدرتهم لتحطيمه سياسيا اذا هو لم يقدم دليلا على محاولته منع تنفيذ الشنق .

وقال جيف في ارهاق : « لو حدث هذا في أى مكان آخر من المقاطعة، لما كان الامر على هذه الدرجةمنالخطورة ، اننى لاأستطيع أن أتخيل لماذا يكون هذا الزنجى المتهم واحدا من عمال بوب واطسون . انه لامر يدعو الى أشد الخزى » .

وكان بوب واطسون أكبر ملاك الارض في مقاطعة جولى . فهو يمتلك مايقرب من نصف الارض المزروعة في المقاطعة ، وكل الغابات تقريبا . وكان يزرع أكثر من ألف وخمسمائة فدان من القطن باستخدام عمال زراعيين . وهناك ألف وخمسمائة فدان أخرى تؤجر للغير أو تزرع بالمشاركة .

وهبطت كورا الى الطابق السفلى ، ووقفت عند مدخل الغرفة . وأدركت على الفور ، بمجرد النظر الى وجه زوجها ، أن أمرا غير متوقع قد ثبط همته .

واتجه برت الى الباب وأخبرها همسا بالحديث التليفونى .

وقال جيف ناظرا اليها في يأس : « لقد انتهيت ياكورا » .

وقالت كورا : « هراء . ان بوب واطسون ليس غير رجل صخاب جعجاع . وأنت تعرفه جيدا الى حد لايجعلك تلقى بالا لما يقول . انهض من على هذا المقعد واذهب الى لوردز كريك كما أخبرتك منذ مايقرب من ساعة . انهض من هنا وحرك نفسك ياجيف » .

واتجه جيم كوتش الى مدخل المبنى منتظرا . ووقف برت متهيئا لمساعدة جيف على الاستعداد .

وقال وقد بدأت الشجاعة تعاوده : « لعلك على حق ياكورا . ان جلوسي هنا واتاحة الفرصة لهذه الامور كى تطحننى ، هو مايؤدى الى الخسارة . برت ، أين الشص الخاص بى) واعد لى مايلزمنى . فلم يعد أمامى ماأضيعه من وقت » .

ونهض ، ثم سار متثاقلا نحو الباب . وتبعته زوجته وهى تربت ذراعه حتى وصل الى المدخل الامامى . وعبر المدخل وهو يندفع بجسمه الى الامام ، وهبط الدرج وأسرع الى سيارته الواقفة في الطريق . وعندما وصل الى المشي الجانبى استدار ليلقى على كورا نظرة أخيرة ، ولكنها كانت قد غابت عن البصر .

وتبعه جيم في المشي الحجرى الى السيارة .

وبدأ جيم يقول مترددا : « مادمت قد اعتزمت أن تتغيب اربعة أيام أو خمسة ، فاعتقد انه من واجبى أن اذكرك بأمر مسز نارسيسا كالهون ياشريف جيف » .

« مابالها ؟ »

« لعلك نسيت أمرها . انه ذلك الالتماس الذى تعده منذ شهرين أو ثلاثة . سيمر بنا وقت عصيب ، فالاضطرابات المتعلقة بالزنوج تثور في نفس هذا الوقت الذى يعد فيه الالتماس » .

وهبط كتفا جيف . وقال ونظراته تنحدر الى الارض : « هذا صحيح لقد نسيت الامر تماما » .

وانطفأ الضوء في غرفة النوم . لقد ذهبت كورا الى الفراش وهى تعتقد أنه رحل الى لوندز كريك . ونظر الى النوافذ المظلمة برهة محاولا أن يفكر .

وقال جيم مقترحا : « لو أنها حصلت على توقيعات اغلبية الناخبين على ذلك الالتماس ، فان هذا سيحدد مصير الانتخابات » .

وأومأ جيف برأسه ، ولاتزال نظرته مثبتة على الارض .

وكانت مسز نارسيسا كالهون ارملة فى حوالى الثامنة والاربعين من العمر ، تكسب قوتها ببيع الاناجيل والكتب الدينيــــة . وقد ظلت طوال الربيع والصيف الماضيــين تلاحق جيف ليشترى احد كتبهـــا . وأخيرا اشترى منها كتابا دينيا على أمل أن تتركه وشانه بعد ذلك . ولم يرها بعد ذلك الا فى صباح أحد الايام منذ ثلاثة أسابيع ، حين دخلت مكتبه تحمل حزمة كبيرة من الاوراق . وعرف في ذلك الحين أنها كانت تجــوب المقاطعة للحصول على توقيعات على التماسها ، الذى كان موضوعه ارسال الزنوج جميعا الى افريقيا . وكانت قد أرسلت خطابا الى الســناتور اشلى ديوكس تخبره أن الزنوج يشترون أناجيل يسوع الاسود من أحــد دور بيع الكتب في شيكاجو ، وانه سيصدم ويشعر بالفضيحة مثلها عندما يرى صور المسيح وهى تمثله كأحد الزنوج . وأخبرته أن شيئا يجب أن يعمل في الحال لوقف توزيع أناجيل يسوع الاسود بين الشعب . ورد عليها السناتور اشلى ديوكس سائلا عما تقترح عمله في هذا الشان . وأبلغته نرسيسا انها تريد اعداد التماس عليه ملايين وملايين من التوقيعات يطلب أصحابها من رئيس الجمهورية أن يعيد جميع الزنوج الى افريقيا التى جاءوا منها ، وكتب اليها السناتور اشلى ديوكس مرة أخرى يبلغها انها اذا استطاعت ان تقنع كل من له حق التصويت في جورجيا بتوقيع الالتماس فانه سيتصرف طبقا لذلك . كانت هذه هى النقطة التى انطلقت منهـــا

نرسيسا لتحصل من كل شخص ابيض يبلغ من العمر الحادية والعشرين على توقيعه على الالتماس . وكان أول ماقاله لهـا جيف انه لايستطيع ، بسبب اشتغاله بالسياسة ، أن يضع اسمه على الالتماس . وظلت تلاحقه فى اصرار الى ان وعدها أخيرا بتوقيع الالتماس اذا مااقنعت كل شخص آخر في المقاطعة بتوقيعه اولا .

وقال جيف وهو يفكر بعمق : « ان هـــذا الالتماس يغير ملامح كل شيء » .

وتساءل جيم : « وماذا ستفعل ياشريف جيف ؟ »

وقال جيف بروح هابطة : « انني أتمنى أحيانا لو انني كنت مجرد متسول غبى لايشغله في الدنيا شيء سوى كسرة ياكلها بين الحين والحين . ان منصب الشريف ليس هو مايتحدث به الناس ياجيم . ان روحى تتعذب بين نهاية يوم وبداية الآخر . ولا أكاد أتذكر متى حصلت على دقيقة واحدة من الراحة الخالصة . فهناك دائما مايحــدث ويسبب العذاب لمن يعمل بالسياسة . وما ان نفرغ من احد الانتخابات ، حتى يساورنا على الفـور القلق على مصير الانتخابات التالية . ان النــاخبين مجموعة غـريبة من الناس . لقد رأيت مرشحين يتغير وضعهم في اللحظة الاخيرة فيصبحون في المؤخرة بسبب امر تافه مثل عدم ارتدائهم منظارا . أليس هذا مثبطا للهمة ؟ »

وجلس على رفرف السيارة ملقيا رأسه بين راحتيه . ووقف جيم بجواره مطرقا .

وقال جيف : « لو كنت فقط أعلم فى أى اتجاه ستهب الريح منـذ الآن ، لما تحيرت كخنزير يتخبط حين يقع في مازق . فلو أن ذلك الالتماس الخاص بالزنوج أصاب هدفه ، لكنت أحمق اذا لم أقفز الى العربة التى تقل الجوقة .. ولعل الاضطرابات التى تحدث الآن بسبب الزنوج هى الامر الذى يدعم هذا الالتماس . فقد بدأ الناس يتزاحمون ليحظوا بفرصة وضع توقيعاتهم عليه لكى يبدوا مشاعرهم الشريرة . وساكون شديد الحمق لو انني تخلفت عنهم » .

ونظر الى جيم وهو يكاد ان يقتنع بالحجج التى قدمها : « اذا كان سياسي كبير مثل اشلى ديوكس يلعب هذه اللعبة وهو آمن ، فهذا سبب كاف يجعل شريفا مثلى يهتم هو الآخر بمستقبله » . وراقب وجه جيم وهو يستطرد : « اننى اشعر اننى على صواب ياجيم » .

فقال جيم : « ان ماتقوله يبدو صحيحا . ولكنك هنا بين نارين . فالسناتور اشلى ديوكس ليس معرضا للمخاطرة باحراق أصابعه وهو في المركز الذى يشغله . ويجب أن تعلم ان التماس الزنوج هذا قد يكون نارا كامنة تدمر كل من يشغل منصبا سياسيا في المقاطعة » .

ونهض جيف ووضع يده على باب السيارة . ووجه نظرة خلفه الى نوافذ الطابق الثانى من مبنى السجن ، ليرى ان كانت كورا قد نهضت من فراشها مرة أخرى . وكانت النوافذ مظلمة وصامتة .

وقال جيف محركا رأسه من ناحية الى الاخرى : «ان زوجتى امرأة حكيمة رغم انها ليست على درجة كبيرة من الجمال . لقد أخبرتنى زوجتى ان أذهب لصيد السمك ، وأنا واثق من اننى سافعل ماقالت . وسأكون أفضل حالا بكثير وأنا جالس فوق كتلة من الخشب في لوردز كريك ، مما لو ظللت هنا جاعلا من نفسي رجلا غبيا وأنا أحاول أن أعثر على شيء لن يدرك أحد حقيقته حتى يخمد الصياح الذى يعلو » .

وراقبه جيم وهو يرتقى السيارة ويحشر كرشه تحت عجلة القيادة وكان مستاء . فقد كان يأمل أن يقنع الشريف بتغيير رأيه حتى يمكنهم أن ينطلقوا بحثا عن ذلك الزنجى . وكانت متعتا حياته صيد القنفر بين منتصف الليل والفجر ، وتتبع الزنوج الفارين في كل الاحوال .

وجاء برت يجرى من مبنى السجن . وقال بانفعال :

« هناك محادثة تليفونية أخرى أيها الشريف جيف . اننى لم أجب عليها بعد لاعتقادى انك ربما كنت تريد أن تحاط علما بها اذا لم تكن قد رحلت . فماذا تريدنى أن أفعل ؟ »

فأجاب مسرعا : « أذهب وأجب عليها . أن عملك أن تتلقى المكالمات ولاتعد بشيء » .

فقال برت يستدير منصرفا : « أجل ياسيدى » .

وكان قد وصل الى الباب السلكى عندما ناداه جيف ، فعاد الى درج المدخل .

وقال خارجا من السيارة بأسرع مايمكنه : « سأستمع الى المكالمة ، ولكن هذا ماسأفعله . انتظر يابرت » .

وساعده جيم على اخراج كرشه من تحت عجلة القيادة ، وأصبح بعد ذلك قادرا على العناية بنفسه . وذهب ثلاثتهم الى الداخل .

وتجمعوا حول التليفون . ورفع برت السماعة . وقال : «الو ، الو!»

وقال جيف وهو يرمق آلة التليفون بشك : « لعله لايكون بوب واطسون قد عاد مرة أخرى . فسوف يفقدنى هذا زمام نفسي ويجعلنى أقول له مالايسره هذه المرة » .

وقال برت مرة أخرى : « الو ! »

وأجاب الصوت : « الو . اننى افيرى دينس » . وكان صوته حادا عاليا من تأثير الانفعال . « اننى افيرى دينس من فلورى برانش . وأود أن أبلغ عن حدوث بعض الاضطرابات هنا بالقرب منا . يوجد حشد من الرجال هنا في حقل القمح الخاص بى يدوسون محصولى باقدامهم .. وبعض أفراد هذا الحشد يبحثون عن ذلك الزنجى سونى كلارك . ان أمره لايهمنى في شيء ولكن هؤلاء القوم يدمرون حقلى . لقد بذلت في زراعة قمحى هذا العام عملا كثيرا ، وكان ذلك كله على حساب وقت فراغى ، ولن أقف لاشاهده وهو يتلف » .

وسأله برت وهو يستدير ليراقب وجه جيف : « وماذا تريدنا أن نفعل ؟ »

وأومأ جيف برأسه مترقبا . ولم يكن واثقا من أنه يقر هذا السؤال ولكن كان الوقت قد فات لعمل اى شيء .

« قل للشريف ماكيرتن أن يأتى الى هنا على الفور ليخرج هؤلاء القوم من حقل القمح الخاص بى . انه يتناول من المقاطعة أجرا لكي يحمى الممتلكات ، وأنا اريده أن يحمى ممتلكاتى قبل فوات الاوان . ولايوجد أى زنجى على مسافة تقل عن ميل من هنا . سوف أعد بندقيتى ، وأطلق النار من تلقاء نفسي اذا لم يخرج هؤلاء الناس من حقلى . اننى لست ضد أن يطارد الناس الزنوج ، ماداموا يفعلون ذلك بحرص ، أما عندما يدوسون حقل القمح الخاص بى باقدامهم ، ويقودون السيارات فيه ويركبون البغال خلاله ، فاننى لن أكون مسئولا عما يحدث لهم . اخبر الشريف ماكيرتن اننى قلت كل هذا » .

وقال برت ينصحه : « لو كنت مكانك يا مستر دينس لما اقدمت على عمل متهور . فانك لن تنال شيئا بالزج بنفسك في المشاكل » .

وبدا الانزعاج على جيف . وانحنى الى الامام محاولا أن يسمع مايقال .

وقال افرى دينس : « اذن دع الشريف ماكيرتن يأتى الى هنا ليبعدهم ولقد انتخب لمنصبه من اجل أن يقوم بهذا . وهو يتناول مرتبا كبيرا فى أول كل شهر من أجل القيام بهذا . اخبره اننى قلت هذا » .

وقال برت وهو يضع السماعة مكانها : « سوف أرى مايمكن عمله ».

وتساءل جيف وعيناه تقفزان من التليفون الى وجه برت : « من هذا ؟ »

فقال له برت : « افرى دينس . انه يقول ان هناك حشدا من الناس في أرضه يدوسون باقدامهم محصول القمح الخاص به . وهو يريد منك أن تذهب الى هناك وتخرج الناس من الحقل »

وجلس جيف في ارتياح . واشرقت على وجهه ابتسامة واهنة . وقال :

« لقد كنت على استعداد لان اقسم انه أحمق آخر يريدنى أن اقبض على ذلك الزنجى قبل أن يشنق . ان الامر ليس على مثل هذه الدرجة من السوء كما كنت أتخيل » .

وانتظر برت وجيم في حالة استعداد ، وهما لايدريان ان كان جيف سيرسلهما الى مزرعة افرى دينس بدلا من أن يذهب بنفسه .

وفجاة جلس جيف منتصبا وهو يزيح الاوراق من على المكتب . وقال :

« ليس من حق افرى دينس ان يتصل بى تليفونيا فى هذا الوقت من الليل ! انظرا كم الوقت الآن ! فليدمر الله كل شيء ! كان يجب أن أكون فى الفراش مستغرقا فى النوم ! ان افرى دينس ساعى بريد ، على أية حال . وليس من حق من يعمل موظفا في الحكومة أن يزعج السياسيين الذين عليهم أن يخوضوا الانتخابات لكي يحصلوا على مناصبهم ! انه نوع من الناس يدس انفه دائما فى السياسة . ولدى مايكفينى من المتاعب دون حاجة الى تلقى الشكاوى من ساعى بريد يعيش على عمله كموظف حكومى . اننى لاأعير هذا النوع من الناس أى انتباه » .

وانتفض محررا نفسه من المقعد ، ثم هب على قدميه . وكان يبدو وهو يقف بجانب المكتب الصغير ، اضخم من أى وقت مضى .

وقال بخشونة وهو يتحرك فوق الارض التى تقرقع تحت قدميه :

« أعد لى الشص ، كما قلت لك يابرت » .

فقال برت وهو يقفز : « اجل ، يا سيدى الشريف ، لقد وضعته ازاء الجدار عند المدخل الامامى » .

الفصل الثالث

بينما كان الشريف جيف ماكيرتن يرتقى سيارته للمرة الثانية في تلك الليلة ليرحل الى لوردز كريك ، كان سونى كلارك يزحف خارجا من غابات الصنوبر الكثيفة التى تغطى كل السهوب الجنوبية لايرنسو ريدج . وكانت ايرنشو ريدج بقعة ممتدة من الاراضي التى يكون تربتها الصلصال الاحمر، وتنطلق من الاراضي الرملية المنبسطة لمقاطعة جولى وتلالها المستديرة ، وتبدو كانها شريان عظيم . وكانت هذه البقعة تبدأ من مكان ما في المقاطعة المجاورة ناحية الغرب ، وتسير منحرفة بزاوية عبر القسم الشمالى من مقاطعة جولى ، ثم تختفى ناحيـة الجنوب الشرقى في مقاطعة سـميث . وتمتد فلورى برانش جنوبا في شكل لولبى خلال الاراضي المنخفضة المتجهة نحو نهر اوكونى .

وكان سونى قد قطع بعيدا عن فلورى برانش مسافة تقرب من ميل ونصف الميل في وقت مبكر من المساء . وبعد أن وصل الى الغابات ، رقد وهو يرتجف على الارض الواقعة خلف جذع شجرة جافة لفترة تقرب من ساعتين ، ولم يكن سونى قد ابتعد ابدا طوال حياته ، فيما عدا المرتين أو الثلاث التى ذهب فيها الى اندروجونز ، كل هذه المسافة عن بيته .وكان غالبا مايتساءل عما يقع في الجانب الآخر من ايرنشوريدج ، ولكن كل ماكان يعرفه هو أن العالم ينتهى هناك .

وكان يزحف قلقا خلال الاحراش الوعرة الواقعة في طرف الغابة . وعندما وصل الى أرض عارية تقع في أحـد الحقـول المكشوفة ، توقف وانصت برهة من الزمن . وكان أحد الكلاب ينبح في مكان ما من الاراضي المنخفضة ، ولكن لم تكن تتردد في الليل اية أصوات اخرى • ووقف ، وبعد

ان تلفت حوله في جميع الاتجاهات ، سار بحذر عبر الحقل في اتجاه الارض المزروعة . فلم يكن يعرف مكانا آخر يذهب اليه .

وسار عبر الحقل في حركات عصبية متعجلة متوقفا فجاة كلما خيل اليه انه سمع أصواتا ، ثم يعود الى الاسراع عندما تهدأ مخاوفه . وكان يخشي ، دون أن يخشي الوقوع فى خطأ ، الاتجاه الذى عليه أن يسير فيـه ليصل الى الحى الذى تقطنه العائلات الزنجية في المزرعة . وتسلق سورا من الشجيرات ، وأخذ يركض في جذل في قناة صغيرة في حقـل مزروع . وكانت كل خطوة تقربه من بيته تبعث في نفسه شعورا أكبر بالسعادة ، لم يحسه في أى وقت مضي .

وكان سونى في الثامنة عشرة من عمره ، ويقيم مع جدته مامىتاليافيرو في حى الزنوج في مزرعة بوب واطسون ، ويعمل أجيرا في الحقول ، يكسب من النقود مايكفيه هو وجدته ، وكان والداه قد لقيا مصرعيهما منذ عشرة أعوام عندما اصطدمت سيارة لورى محملة بكتل من الاخشاب ، تسـير بسرعة جنونية في ارنشوريدج ، بالعربة التى كانا يستقلانها .

وظهرت أمامه فجاة الاكواخ التى تشغل احياء الزنوج . وكان ضوء النجوم يجعل الحقول ، وحتى المبانى نفسها ، تبدو مالوفة في الليل مثلما هى مالوفة في النهار . وهبط فى احدى الحفر خلف أول كوخ صادفه مدة عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة ، فقد كان يريد أن يطمئن الى انه في مأمن عندما يسير في العراء ، وهو قريب من المبانى الى هذا الحد .

ولم ير أحدا يتحرك عند الاكواخ . ولم يبد في اى منها ضـوء . وجعله هذا يشعر بالوحدة والخوف اللذين انتاباه وهو في الغابات .

وبعد برهة ، زحف على يديه وقدميه الى الجهة الخلفية لأقـرب كوخ • ورفع جسمه على ركبتيه لينظر من خلال شق فى الباب •

وعلى ضوء اللهب الوردى المتوهج الصادر من احتراق كتل غليظة من خشب الصنوبر ، استطاع أن يرى هنرى باجلى وزوجته «في» مكومين فوق المدفأة في الغرفة الكبيرة . وكان هنرى صديقا لسونى على الدوام ، وقد

ظل يفكر فى هنرى طول الوقت الذى كان يختبىء فيه في الغـــابات في ايرنشوريدج . فقد كان يخشى ان يذهب الى بيته هو . وكان يعلم انه سيمر بوقت عصيب وهو يحاول ان يشرح لمامى ماحدث ، كما انه كان يخشى بالاضافة الى ذلك ان يكون بعض الرجال البيض فى انتظاره هناك ليقبضوا عليه فى اللحظة التى يرون فيها وجهه .

وانتظر سونى بأنفاس متقطعة ، وعيناه مثبتتان على الضوء الخـافت الصادر من المدفاة . ومرت دقائق عديدة قبل ان يجد مايكفى من الشجاعة لان ينادى هنرى . ثم وضع شفتيه على الشق ، ونطق اسم هنرى همسا.

وجلس هنرى ساكنا تماما . وعيناه فقط هما اللتان اتجهتا نحـــو الباب .

وقل في صوت خافت ، وقد تملكه الخوف والانزعاج : « من هناك ؟»

واتجهت « فى » الى الامام وهى تتحرك اقل حركة ممكنة ، والقت فى النار كتلة اخرى من الخشب . وغمر الضوء الغرفة .

وهمس سونى : « انه انا ياهنرى . اننى سونى » .

فقال : « ما الذى تعنيه بالهمس بهذه الصـــورة التى اثارت فزعى يابنى ؟ أليس لديك عقل على الاطلاق ؟ »

فقال سونى : « اننى لم أقصد ازعاجك ياهنرى » .

ونظر هنرى وفى ، كل منهما الى الآخر ، وهما يومئان براسيهما ، ونظرت « فى » لترى ان كان الباب الامامى مغلقا بالمزلاج . ونهض هنرى متجها بحذر ناحية الباب الخلفى . ووضع اذنه على الباب ، وانصت ليرى ان كان يستطيع تمييز أصوات هناك في الخارج .

« تعال هنا ياهنرى » .

« ماذا تريد ؟ »

« لدى ماأريد أن أخبرك به » .

وفتح هنرى و فى الباب بضع بوصات ونظرا الى الفناء . ورأياه مكوما على الارض فى ركن يقع بين الدرج الموصل الى الباب وبين جـــدار البيت .

وفتح هنرى الباب فتحة أوسع ، وهبط بجوار سونى .

وتساءل : « ماذا الم بك يابنى ؟ »

فقال سونى وهو يقبض بيديه على ذراع هنـــرى : « اننى فى مازق ياهنرى . لقد وقعت في مازق خطير ياهنرى » .

فقال هنرى : « يا بنى ، ان لدى متاعبى الخاصة التى تشغلنى » .

« انه اسوأ مازق وقعت فيه طوال حياتى ياهنرى . انه ليس مازقا عاديا » .

« ماذا حدث لك ؟ »

فقال سونى : « اننى انا نفسي لم افعل شيئا . انه يبدو وكأن المازق هو الذى جاء وامسك بخناقى ياهنرى » .

« ماذا فعلت ؟ »

فقال سونى متضرعا : « اننى لم اقصد ان افعل شيئا . لقد كنت اسير بشـكل طبيعى في الطـريق الرئيسي عند مغيب الشمس في الليلة الماضية افكر فى شئونى الخاصة في استغراق ، ثم فجاة حدث كل شيء ».

وقال هنرى يحث سونى على الـــكلام ، وهو يقبض على اليـــد التى تمسك به : « ماذا حدث ؟ امض فى حديثك يا بني ! ماذا حـدث هناك فى الطريق الرئيسي ؟ »

« اتعرف مستر شب بارلو ، ذلك الرجل الابيض الذى يستاجر من مستر بوب ارضا يزرعها بالمشاركة معه في الجانب الآخر من القرية ؟ »

فأوما هنرى براسه : « اننى أعرفه . أعرفه معـرفة جيدة . ماذا فعل لك ؟ »

فقال سونى بسرعة : « مستر شب نفسه لم يفعل شيئا . انها ابنته مس كيتى » .

واختفت فى كالشبح داخل الكوخ ، وهى تغلق الباب خلفها دون أن تحدث صوتا . ووقفت فى الداخل تهمس لهنرى محاولة أن تحمله على أن يترك سونى ويذهب الى الداخل حيث تقف هى .

وران صمت طويل . وحملق هنرى فى وجه الصبى الاسود المتكوم المتجه الى أعلا . وكان وجه سونى يلمع في ضوء النجوم بما ينساب عليه من خطوط العرق .

وتساءل هنرى : «ماذا حدث يابنى ؟ »

وتعلق سونى به بكلتى يديه ، وقال مرتجفا وهو يستعيد ذكرى ماحدث : « لقد خرجت مس كيتى راكضة من بين الشجيرات وتشبثت بى ولم تطلقنى . لم ترض مس كيتى أن تطلقنى ابدا واستمرت تقول : «اننى لن أخبر أحدا ـ اننى لن أخبر أحدا) . على هذا المنوال . وقلت لها انهليس من شأن صبى اسود أن يقف هكذا في الطريق الرئيسى أثناء وجودها هى ، ولكنها لم تلق بالا لما كنت اقوله . ولست أدرى ماذا ألم بها وجعلها تتصرف على هذه الصورة . لقد استمرت تقول: (اننى لن أخبر احدا ـ اننى لن اخبر احدا » .

وحاول هنرى أن يتخلص من يدى سونى اللتين تتشبثان به .

« يابنى ، انك بكل تأكيد قد وقعت فى أشد المشاكل خطورة عندما دفعت بنفسك في هذا المأزق . لماذا لم تتخلص منها وتسير بعيدا ؟ لماذا لم تتصرف كشخص لديه بعض العقل وتجرى بعيدا ؟ كان يجب أن تفعل ماهو أفضل من الوقوف ساكتا والانصات الى فتاة بيضاء تحاول أن توقعك في مأزق . أين كان عقلك ؟ »

وقبض سونى بقوة أكبر على ذراع هنرى ، وقال وصوته يتهدج وينخفض : « وليس هذا كل شيء » .

« ياالهى الرحيم القدير ، يابنى ! ليس هذا كل شيء ! ماذا تعنى ؟ والآن لا تخبرنى أن فى راسك هذه ذرة واحدة من العقل ! »

« بينما كنت أقف هناك في الطريق الرئيسي محاولا أن أجعلها تتركنى جاءت سيارة فيها مسز نارسيسا كالهون ، تلك المرأة البيضاء ، والواعظ فيلتز . وقفزا منها وأمسكا بى . وأخبرتهما اننى كنت أحاول أن أتخلص من مس كيتى ، ولكنهما لم يلقيا الى بالا . وأخرج ذلك الرجل الابيض سكينا ، وتأكدت أن نهايتى قد اقتربت . وطرحنى على الارض و ... »

وقال هنرى همسا وهو يقبض على كتفيه ويهزه بخشونة : « لقد بدأت ، يابنى ، بالقاء نفسك في مأزق مع فتاة بيضاء ... »

« اننى لم أفعل ذلك ياهنرى ! ان مس كيتى هى التى فعلت ذلك لأن .... »

« ان هذا لايغير من الامر شيئا . لقد أوقعت نفسك في مأزق ، ثم رميت بنفسك بين يدى مسز نارسيسا كالهون . ألم تكن أذناك مفتوحتين أبدا ؟ ان هذه المرأة البيضاء تجوب البلاد بأكملها ومعها ورقة تريد أن ترسل بها كل الملونين الى افريقيا أو الى أى مكان مشابه . ثم تذهب أنت لتجعلها تمسك بك أثناء وقوفك مع تلك الفتاة البيضاء .. »

واقترب سونى من هنرى متشبثا به بكل قوته . وقال متضرعا : « اننى لم افعل شيئا يا هنرى . اقسم لك أمام الله الرحيم اننى لم أفعل شيئا ! انها هذه الفتاة مس كيتى التى كانت السبب في المأزق ..»

« وكيف تسنى لك أن تأتى الى هنا زاحفا على الارض عند بابى الخلفى ما دامت مسز نارسيسا والواعظ فيلتز قد قبضا عليك كما أخبرتنى ؟ »

« لقد أطلقا سراحى » .

فقال هنرى متعجبا : « هل فعلا هذا ؟ وماالذى جعلهما يفعلان هذا ؟ »

« قالت مسز نارسيسا انها تطلق سراحى كما أريد لاننى لن انطلق بعيدا على اية حال » .

ونظر اليه هنرى فترة طويلة من الزمن . وقال أخيرا وهو يهز رأسه من ناحية الى الاخرى : « يا بنى ، انك بكل تاكيد قد اوقعت نفسك فى مازق خطير » .

وقال سونى متوسلا ، وهو يقترب منه : « ماذا افعل الآن ياهنرى ؟ »

« ان أفضل ماتفعله هو أن تمضي بعيدا عن هنا ، وباسرع مايمكنك » .

فقال سونى محتجا ، وقد بدأ ينتحب : « ولكننى لم افعل شيئا ياهنرى . لقد كنت أسير في الطريق متوجها الى البيت لتناول العشاء بعد العودة من حقل القمح الذى يمتلكه مستر بوب حيث كنت انتزع الحشائش طوال اليوم . واذا بمس كيتى تندفع نحوى خارجة من بين الشجيرات . اننى لم المسها ابدا . فقد كانت هى التى تقوم بذلك ياهنري » .

وقال هنرى في أسي : « لافرق في هذا عند البيض مادام التلامس قد حدث . انهم لن يتريثوا ليدرسوا الامر مثلما نفعل انا وانت . انهم يقدمون على عمل ضخم ثم يدرسون الامر فيما بعد . ألا تعلم أن مسز نارسيسا كالهون ستذهب مباشرة الى الرجال والشريف كذلك لتبلغهم بالموقف الذى ضبطتك فيه ؟ ان البيض لايسمحون بان يضبط زنجى مع فتاة بيضاء ثم لايحدث له شيء . ان مسز نارسيسا هذه تريد أن تملأ اوراقها بالاسماء لكى تحقق ماتريده من ارسال الملونين الى افريقيا . ولافرق لدى هذه المرأة في أى أمر من الامور . اننى أعلم ماأقوله يابنى » .

وتكوم سونى على الارض وهو يرتعد متشبثا بيد هنرى وكانه يتشبث بالحياة . وقال بانفاس سريعة متلاحقة ، وكان قد نهض على ركبتيه في ذلك الحين متشبثا بهذى . وكان هنرى قد بدأ يحاول تخليص يده من

قبضة سونى « هنرى ، اننى اقول لك اننى لم افعل شيئا لهذه الفتاة البيضاء . اننى لم ألمس أبدا فتاة بيضاء فى حياتى باسرها ، ولم أحاول ان افعل هذا . لقد اندفعت مس كيتى وتعلقت بى بنفسها . ولا بد انها كانت تختبىء بين الشجيرات ، ولست أدرى كم مضي عليها من الوقتوهى مختبئة قبل أن تندفع نحوى على ذلك النحو » .

وناضل هنرى لتخليص نفسه . وحاول ان يتجه الى الخلف ناحية الباب بالرغم من أن سونى كان يحيط ركبتيه بذراعيه . وقال له هنرى بهدوء اليائس : « ان ماتقوله من انك فعلت أو لم تفعل لايغير من الامر شيئا ، لأن البيض هم الذين سيتولون منذ الآن الحديث والعمل . ولن يتوقفوا لينصتوا الى اى شخص يحمل وجها اسود » .

وقال سونى يائسا : « اننى لاأدرى ماذا أفعل » .

« اننى أستطيع أن أخبرك بما تفعل . اذهب بعيدا عن هنا باسرع مما تستطيع قدماك أن تحملاك . وعندئذ استمر في السير حتى تصل الى المكان الذى تعتقد انك تقصده . امض بعيدا عن هذه البلاد . اتجه رأسا الى الشمال ، ولا تتوقف او تتلكا حتى تصل الى هناك . فهذه البلاد المحيطة باندروجونز لم تعد المكان الذى يلائم زنجيا ضبط وهو يعبث مع فتاة بيضاء » .

فقال سونى متوسلا وهو ينظر فى خوف من فوق كتفه : « اى مكان تقصد ياهنرى ؟ هناك عند الطرف الآخر من ايرنشوريدج ؟ »

« يا بنى ، هذا أيضا ليس بداية المكان الذى اعنيه . ان ما أعنيه أن تذهب بعيداً في الجانب الآخر بحيث لاتعود ترى هذا الجانب مرة أخرى » .

فقال سونى متوسلا : « اننى اريد ان امكث هنا ، واعمل فى زراعة القطن والقمح لحساب مستر بوب . لا اريد ان اذهب الى اى مكان بعيد عن هنا . لو انهم سالوا مس كيتى لأخبرتهم انه لم تكن لى اية علاقة بهذا الامر ... »

وهمس هنرى : « صه ! »

فقد وصل الى أسماعهم صوت حاد لشيء يتحطم من ناحية الطريق امام الكوخ . وكان يبدو كان شخصا يهشم فوق ركبته احد أعواد الحطب وبعد برهة بدأت كلاب عديدة تنبح .

وتكوم سونى في ركن السلم . وانتزع هنرى يده من قبضة سونى القوية .

وتساءل سونى بصوت مرتجف : «ماهذا ؟»

واستند هنرى بظهره الى الباب بقوة أكبر ، وهو يتحسسه بيده باحثا عن المقبض .

وبدلا من ان يقول هنرى شيئا ، هز راسه محذرا سونى بأن يلتزم الهدوء . ثم انحنى ومس رأس الغلام .

وهمس لسونى بصوت أجش : « امض في طريقك يابنى . فلايوجد من الوقت ماتضيعه في التلكؤ عند بابى الخلفى . وليس هناك مايقال عندما يبدأ البيض التجول في هذا المكان بحثا عنك . وقد يكونون هناك فى الظلام يزحفون الى هنا فى هذه اللحظة » .

والتى سونى بذراعيه حول ساقى هنرى . ولم يتمكن هنرى من تخليص نفسه .

وقال كطفل ضل طريقه فى الظلام ، وعيناه مثبتتان على وجه هنرى البراق : « اننى لا أود ان أبتعد عن هنا يا هنرى . أريد ان امكث فى المكان الذى توجد فيه مامى » .

« توقف عن الحديث عن مامى . فليس هذا وقت الحديث عنها . لقد سمحت لفتاة بيضاء ساقطة بان تزج بك فى مازق . ان البيض لن يتوقفوا عند حد الآن ، حتى ولو تعلق الامر بمامى . اذهب بعيدا عن هنا كما اخبرتك » .

وتشبث به سونى بقوة أكبر .

« هل لك أن تخبر مامى ، ياهنرى ، نيابة عنى أننى لم أفعل شيئا. اخبر مامى أنها لم تكن غلطتى على الاطلاق . قل لها ان مس كيتى هى التى اندفعت من بين الاشجار ، وتعلقت بى . هل لك ان تخبر مامى بهذا ؟ »

فقال هنرى بلهفة ، وهو يدفع سونى بعيدا عنه : « بكل تاكيد . ساخبر مامى عند اول فرصة تسنح . اما الآن فلا يوجد ما يمكن عمله سوى الاختباء من هؤلاء القوم البيض الذين يطاردونك حتى يفرغوا مما يريدون عمله . والآن ، اذهب كما اخبرتك من قبل . فاننى ازداد فزعا في كل لحظة تمضي على وأنا واقف هنا هكذا » .

وتخلص هنرى من ذراعى سونى وقفز الى الخلف داخلا من الباب وصفق الباب وأغلقه بالمزلاج من الداخل باحكام ، تاركا سونى متعلقا بالدرج .

وتكوم سونى برهة ، فى مكانه ، وقد بلغ به الفزع حدا منعه حتى من أن يدير رأسه لينظر خلفه . ولم يكن القمر قد أشرق بعد ، ولكن السماء المرصعة بالنجوم بدت وكأنها أصبحت أكثر لمعانا منذ منتصف الليل . وعندما وجد سونى من الشجاعة مايكفى لان يدير رأسه وينظر خلفه ، استطاع أن يرى الاسوار التى تتقاطع مع الارض الشاسعة المستوية بوضوح يشبه ذلك الوضوح الذى رآهما به اثناء النهار ، والشمس مشرقة وعبر الحقول ، ولمح أشجار الصنوبر سامقة كأنها أيد تتجه الى السماء . وأغلق عينيه بقوة ، واستدار مرة أخرى لينظر الى باب كوخ هنرى . وكان الكوخ الذى يعيش فيه هو ومامى يكاد لايقع في مدى البصر ، فقد كان بعيدا عن هنا ، وهو يخشي أن يتحرك بعيدا عن ظل المبنى الذى يكمن فيه .

وكانت الاكواخ الاثنا عشر او تزيد التى تشغل حى الزنوج الذين يعملون في أرض بوب واطسون كعمال اجراء أو مستأجرين ـ كانت هذه الاكواخ متناثرة على جانبى الحارة مسافة تقرب من نصف ميل . ولم يكن يظهر في الحى أى ضوء . وطرق سونى باب هنرى براحة يده وهو يناديه.

ولم يجب أحد . وزحف على يديه وركبتيه حول ركن الكوخ ورفع جسمه بما يكفى لان يضع عينيه امام شق يقع أسفل المصاريع الخشبية المحكمة الاغلاق للنافذة الوحيدة في البيت .

ولكن « فى » كانت قد غطت كتل الخشب المحترقة بالرماد ، ولم يستطع أن يرى أى وميض ضوء في الغرفة .

وهمس في الشق : «هنرى !»

ولم يتلق أية اجابة لفترة طويلة رغم انه خيل اليه انه سمع فى وهنرى يتهامسان . وكان الصوت الآخر الوحيد ان وصل الى سمعه هو الحركة اللينة على الارض عندما سارت فى وهنرى عليها باقدامهما العارية وكانا قد خلعا أحذيتهما كى لايحدثا أية ضوضاء .

وهمس مرة أخرى ، بصوت أعلى من ذى قبل : « هنرى ! هنرى !»
وهمس هنرى فى ظلام الغرفة : « ماذا تريد الآن يا بنى ؟ »
ولم يكن صوته قاسيا ، ولكن كان به مايحمل على الاعتقاد بانه يود من سونى أن يذهب بعيدا .

وقال سونى متوسلا : « اننى لاأستطيع أن افر كما قلت لى ياهنرى. فلست اعرف اى مكان على الاطلاق اذهب اليه . اننى اود ان امكث هنا اننى لم افعل شيئا ياهنرى » .

واستطاع ان يسمع فى وهنرى يتهامسان ، ولكنه لم يميز اى كلمة من همسهما . وانتظر وهو معلق باصابعه من حافة النافذة .

وقال هنرى متحدثا فى الشق : « اذا لم تستطع ان تفر كما اخبرتك ، فاذهب الى اى مكان يبعد عن هنا باقصى ماتستطيع ، واختف بقدر امكانك داخل الغابات . ولكن لا تمكث هنا وقتا اطول من ذلك ، فمن المتوقع ان يصل البيض مندفعين الى هنا في اية لحظة . ولابد أن لديك من الادراك السليم ما يجعلك تعلم انهم يطاردونك . اذهب الى اى مكان ، وابحث لنفسك فيه عن مخبأ ، وامكث هناك . وسوف أحضر بحثا عنك عندما تهدأ الضجة » ان كانت ستهدأ » .

« هل ستفعل هذا حقا ياهنرى ؟ هل ستأتى لترانى ؟ »
فقال هنرى متوسلا اليه : « ألم أكن أفعل دائما ماأعد به ؟ امض نحو غابات الصنوبر العميقة بأسرع مايمكنك . امض يابنى كما قلت لك» وكان صوته يدل على العجلة .

فقال سونى مطيعا : «وهو كذلك ياهنرى . سأذهب كما قلت لى .»
وهبط عن حافة النافذة ، وهو يشعر بتحسن كبير منذ أن أخبره هنرى انه لايلزم له أن يبارح المنطقة المزروعة . في استطاعته أن يختبىء في الغابات القريبة لاى فترة من الزمن مادام يعلم أن في استطاعته العودة عندما تهدأ الضجة لكى يعمل لحساب بوب واطسون في زراعة القطن .

وسار على أطراف أصابعه حتى ركن الكوخ ، ووقف ينصت ورأسه مائلة قليلا الى احد الجانبين . وكانت الكلاب قد كفت عن النباح والعواء ولم يصل الى سمعه اى صوت . وكانت بعض الصراصير تصدر اصواتا حادة بالقرب منه ، ولكن هذا لايهم . انه يحس بالامن والراحة وهو واقف هنا عند ركن كوخ هنرى .

وفجأة شعر بالجوع . وتذكر انه لم يتناول عشاءه تلك الليلة .ولم يشعر بمثل هذا الجوع فى حياته من قبل . ولو انه ذهب الى الغابات وهو جائع الى هذا الحد ، ومكث هناك عدة أيام ، قد تطول حتى تصبح اسبوعا بأكمله ، فسوف يهلك جوعا . واستدار على عقبيه بسرعة . ونظر الى النافذة ذات المصاريع المظلمة » ونطق باسم هنرى عدة مرات ، ولكنه لم يتلق اية اجابة . وتذكر انه لم يتناول فى طعام الغداء ذلك اليوم غير بعض القرنبيط الاخضر البارد . وامسك بطنه بكلتى يديه محاولا أن يخفف من الألم الذى احس به فجأة .

وحاول ان يفتح مصراع النافذة الثقيل ، ولكنه كان مغلقا باحكام من الداخل . وعندئذ وضع فمه على الشق الوحيد الذى وجده ونادى هنرى برهة من الزمن ، وأخيرا نادى فى . ولم يتلق اى جواب .

وبعد ان نظر سونى فى جميع الاتجاهات اولا بعناية ، زحف الى الباب الأمامى وطرقه . ولم يتلق اى جواب ، فطرق الباب بصوت أعلى .

وجاء هنرى الى الباب وهمس : « من هذا ؟ »

فقال سونى فى يأس : « انه أنا ، يا هنرى . أنا سونى . »

وسادت فترة صمت طويلة .

وقال هنرى بخشونة : « لماذا لم تذهب بعيدا كما اخبرتك الآن ؟ لازال امامك يابنى من الوقت ما يسمح لك بان تذهب الى اى مكان تختبىء فيه . »

« اننى جائع يا هنرى » .

وسادت فترة صمت اخرى قبل ان يعاود هنرى الحديث :

« انك بكل تأكيد تتلكأ يا بنى . اننى لم اشهد فى حياتى من قبل شبيها بهذا . انك تتلكأ كانك عجل حديث الولادة يتعلق بذيل البقرة .» واستأنف متسائلا وصوته يعلو : « أليست لديك ذرة من العقل ؟ »

فقال بصوت رقيق : « اننى جائع يا هنرى . »

وتهامس هنرى وفى خلف الباب .

« اننى لا أستطيع أن أمضى الى تلك الغابات وأنا على مثل هذه الحالة من الجوع . وليست معى أية كسرة اتناولها . »

فقال هنرى محذرا : « لن تكون بك أية حاجة الى الاكل ، لو انك تلكأت هنا وسمحت لهؤلاء البيض باعتقالك . ان الذين يتهددهم الموت لا تكون لديهم اية رغبة فى تناول الطعام . »

وسمع سونى وقع اقدام هنرى العارية تسير نحو المطبخ ، فعلم انه ذهب يأتيه بشىء يأكله . وتكوم عند الباب ، مديرا راسه بما يكفى لتمكينه من مراقبة الحارة من طرفيها . وكانت جميع الاكواخ القائمة

فى الحارة مظلمة كالليل نفسه . وكان الحى بأكمله يبدو مهجورا . وتساءل سونى وهو مكوم ازاء الباب عما اذا كان سكان الحى ، بخلاف فى وهنرى » قد علموا شيئا عن مشكلته . وقد استقر رأيه على انهم يعلمون ، اذ انه لم يكن يتخيل وجود سبب آخر لاظلام الاكواخ ، حتى ولو كان الوقت بعد منتصف الليل ، ولاغلاق مصاريع النوافذ فى تلك الليلة الحارة من ليالى الصيف .

وقال هنرى فجأة : « امدد يدك فى فتحة الباب عندما افتحه قليلا. لم تجد « فى » شيئا غير بعض كسر الخبز ولكنها ستكفيك بعض الوقت . والآن خذ ما أعطيه لك واسحب يدك بسرعة ، لاننى سأغلق هذا الباب بأحكام مرة أخرى . فأنا أعلم ان مطلبك القادم سيكون السماح لك بالدخول الى هنا والنوم على الفراش . هل تسمعنى يا بنى ؟ »

فقال وهو يحس بالامتنان : « اننى اسمعك يا هنرى » .

ووضع يده على الباب منتظرا أن تظهر فتحته . وفى لحظة واحدة امتدت يده داخل الفتحة وقبض على الخبز الذى دفعه هنرى اليه . وبدأ يأكله فى قضمات كبيرة .

وقال هنرى فى الحاح : « اننى لا أحاول أن أكون خسيسا معك يا بنى . اننى فقط أحاول ان اجعلك تمضى الى تلك الغابات الكثيفة فهى المكان الذى يجب أن توجد فيه . والآن ، امض ! هل تسمعنى يا بنى ! »

فقال سونى يعده بتنفيذ قوله : « اننى ذاهب يا هنرى . لقد كنت فقط جائعا . »

وغادر الباب ، وهو يحشو فمه بالخبز ، ويبتلعه فى الم . وعندما بلغ الجانب الخلفى للكوخ ، توقف وارهف السمع ، ولكن لم يصل الى سمعه شىء . والقى نظرة اخيرة فى اتجاه الكوخ الذى تقيم فيه مامى ، ثم زحف خارجا من فجوة فى السور الواقع خلف كوخ هنرى . وبدأ السير فى الحقل نحو ايرنشوريدج .

وعندما وصل الى منتصف الحقل الاول تذكر الارانب فجاة ، وكانت هناك شجرة صنوبر غير بعيدة عنه ، فانحنى وجرى نحوها . والصق جسمه بجذع الشجرة ، وخيل اليه انه يرى الارانب وهى على مسافة نصف ميل من مكانه . وكانت تقيم في كن في مؤخرة بيت الدجاج الذى تمتلكه مامى .

ووقف تحت الشجرة يتساءل عما اذا كانت مامى ستنسى اطعامها اثناء غيابه . انها قد تنسى اذا ما امضت الوقت جزعة عليه . وستظل الارانب داخل الكن المغلق يومين أو ثلاثة ، وربما اسبوعا باكمله ، دون شيء تاكله ، اذا ما غاب هو هذه الفترة الطويلة . وكلما مر الوقت عليه وهو يحملق فى اتجاه الارانب ، كلما ازداد اضطرابه . فقد كانت مامى متقدمة في السن ، سريعة النسيان . وآلمه ان يفكر فى ارانبه المحبوسة وهى تموت من الجوع .

واستقر رأيه على أن يذهب عبر الحقل الى مؤخرة بيت الدجاج ويطعم الارانب . وسار ببطء عبر الحقل حتى وصل الى المنخفض الذى تنمو فيه الحشائش الطويلة . وانتزع الحشائش بقبضة يده ووضعها داخل قميصه . وعندما لم يعد من الممكن وضع مزيد من الحشائش داخل القميص ، جرى بجانب السور حتى وصل الى مؤخرة كوخ مامى . ولم يكن بيت الدجاج يبعد عن الكوخ باكثر من بضع ياردات . واستطاع أن يرى الارانب رابضة فى ضوء النجوم ، وهى تدس انوفها البارزة فى الفتحات الواقعة بين الاسلاك . وبدات تتواثب في المكان كانما اصابها الجنون عندما رأته يتسلق السور ويتجه نحوها.

وملا سونى الصناديق الى نهايتها بالحشائش الخضراء الغضة ، ومد يده في الداخل يتحسس الارانب . وجلس الارنبان الكبيران في مكانهما وتركاه يعرك آذانهما ، ويمر باصابعه فى فرائهما . وكان الذكر اكثر حذرا ، فانكمش فى احد الاركان واستمر يقضم الحشائش ، واحدى اذنيه منتصبة والاخرى مسترخية على رقبته .

وقال سونى مخاطبا الذكر وهو يقرب منه قبضة الحشائش :

« انك بكل تأكيد تحب تناول طعامك ، اليس كذلك يا جيم داندى ؟ انك تشغل رجلا باطعامك ، ولا شيء غير ذلك . »

واستغرقه الجو الساحر الذى احاطته به الارانب ، الى ان قفز من مكانه حين تذكر ما يجب عليه عمله . ونظر خلف ركن بيت الدجاج تجاه الكوخ ، ولكن المبنى كان غارقا في الظلمة كبقية الاكواخ . وود لو استطاع ان يدلف الى الداخل ويوقظ مامى ويخبرها بما حدث ، ولكنه تذكر ما قاله له هنرى ، فاستدار مبتعدا فى حزن .

وعندما مر بالصندوق الذى توجد فيه الارانب ، توقف ونظر داخله مرة اخرى . وكان جيم داندى واناثه مستغرقين في تناول الحشائش الغضة ، فلم يتحركا هذه المرة ، وخيل اليه ان الصندوق شديد الامتلاء بالارانب ، وكانت الارانب الصغيرة قد بدأت تأكل الحشائش هى الاخرى . وكانت تتواثب فى المكان بامره ، فتقضم بعض الحشائش من احدى الحزم ، ثم تقفز لتناول قضمة من حزمة اخرى .

وكان على وشك أن يتسلق السور عندما جرى فجاة عائدا الى الصندوق . وقبض على أحد الارانب الصغيرة ، وقفز فوق السور وهو ممسك به بكلتى يديه ، وجرى عبر الحقل .

وعندما وصل الى مصرف تنمو فيه الحشائش ، توقف وانتزع عدة قبضات منه وضعها في قميصه . ثم وضع الارنب مع الحشائش وزرر القميص بعناية .

وجرى بعد ذلك عبر الحقل ، ولم يتوقف حتى وصل الى السور في الطرف الآخر . وكان يشعر عندما نهض بعد ان قفز فوق السور ، بانف الارنب الرطبة على جلده العارى . وكانت باردة ، تحمل له شعورا بالصداقة ، ولم يعد يشعر بالوحدة . وأسرع يسير في طريق يفضي الى ايرنشوريدج ، وقد الصق ذراعيه بجنبيه حتى لا تؤدى حركات جسمه الى اصابة الارانب بالذعر .

الفصل الرابع

بعد أن غادر جيف ماكيرتن اندروجونز ، انطلق بسيارته في الطريق الرئيسي الذى يشق الاراضي المنخفضة ، وقد بدأ يحس لفراق زوجته بوحشة تزيد عما كان يعتقد أنه سيحس بها بعد ثلاثة أيام أو أربعة . لسوف يجد في لوردز كريك زنجيا يطهو له طعامه ويظل برفقته ، ولكنه سيظل رغم ذلك يشعر فى كل دقيقة بانه غير سعيد . فلا يوجد فى العالم ما يمكن أن يشغل مكانه كورا ، بالطعام الذى تقدمه له ، وبمجرد وجودها معه عندما يحمل المساء .

وكان الطريق الرئيسي مستويا مستقيما . ووصل الى الزقاق الضيق الذى يؤدى الى لوردزكريك بسرعة أكبر مما كان يريد . وقلل من سرعة السيارة وهو يوجه نظرة طويلة آخيرة الى الاراضي المنخفضة قبل ان يستدير الى منطقة المستنقعات الكثيرة التى تحف بالجدول مسافة تمتد ميلين او ثلاثة على كل من الجانبين .

وفجأة شقت الظلام اضواء صادرة من المصابيح الكشافة لسيارة آخرى واستقرت عليه . ووصلت السيارة خلفه ، ثم توقفت عن المسير . وقبل أن يجد وقتا يتحرك فيه ، رأى أمامه جيم كوتش .

وقال جيم بأنفاس متقطعة : « انني سعيد لانى لحقت بك فى الوقت المناسب . ولو كنت قد وصلت الى لوردز كريك لما استطعت أن أجدك قبل بزوغ النهار . »

فقال متسائلا : « ماذا حدث يا جيم ؟ » .

فأجاب جيم بسرعة : « انه القاضى بن آلان ، أيهـا الشريف جيف . لقد قال انه يريد ان يراك في الحال »

فصاح جيف متعجبا : « بحق الانسان الحى يا جيم ! ولماذا لم تخبره انني رحلت الى لوردزكريك ؟ ان كل ما يريده هو أن يعرف ما اذا كان قد بلغنى نبأ الاضطرابات التى حدثت ، وأن احضر الى هنا ، أليس كذلك ؟ »

فقال جيم متأملا وجهه : « لقد اخبرته بذلك ، يا شريف جيف ، فقال انه يريد منك أن تعود الى المدينة بأسرع ما يمكنك ، وأن تذهب لرؤيته . »

وأسقط جيف يديه من على عجلة القيادة . وبدأ يحس فجـأة بالضعف يدب في ساعديه .

وقال : « انني لا أدري فيم يفكر القاضى بن آلان . فليس هـو بالذى يغير رأيه ، حتى أصبح لا يريدنى ان أذهب الى لوردزكريك بعد كل هذه السنوات . »

« وأنا أيضا لا أدرى ، يا شريف جيف ، ولكنه كان يبدو حاسـما وهو يتحدث بالتليفون . »

وحملق جيف في حقول القمح التى تغطى الارض الى حيث لا يدركها بصر ناحية الشرق . وفى الجانب الآخر من الطريق ، كانت الارض تزدهى بالخضرة التى تكسو المستنقعات . وكان هذا المكان القريب من لوردز كريك يشمله السلام والسكون . وكان القمر قد اشرق ، وذكره الضـوء الفضي البارد الذى يسقط على الشجيرات المغطاة بالندى بتلك الليلة التى مرت به منذ سنوات عديدة ، عندما سار سـبعة أميال وهو في طريقه الى بيت كورا ليصحبها للمرة الاولى . وتساءل عما جعله يتذكر تلك الليلة ، ثم بدأ يتمنى لو انه عـاد الى اليوم الذى تزوجا فيه ، ليبدأ حياته كلها من جديد . وكان يعلم انه لو تحقق هذا ، فسـوف يتجنب السياسة كما لو كانت طاعونا .

وقال بصوت يدل على الاجهاد : « لقد كنت اتطلع لقضاء بضعة أيام من السلام والسكينة هنا في لوردز كريك يا جيم . فهذه هى العطلة الوحيدة النقية الحقيقية التى أنالها . »

فقال جيم فى عطف : « ربما يكون كل ما يريده القاضى بن الان هو ان يقول لك بضع كلمات ، ثم يصبح في استطاعتك ان تعود الى هنا راسا مرة اخرى . »

فنظر اليه جيف والامل يراوده : « أيوجد أمل في أن يحدث هذا يا جيم ؟ »

فقال له جيم : « بكل تاكيد . فليس القاضى راغبا فى احداث اية تغييرات كبيرة . فلن تحدث الانتخابات التمهيدية قبل وقت طويل » .

فقال جيف متحدثا بحزم : « وهو كذلك . » وادار المحرك ، وبدأ يدير السيارة . وعندما اعتدلت السيارة هتف قائلا لجيم : « سأسرع عائدا الى المدينة وارى للقاضى بن الان . واحتفظ انت وبرت بالامور فى السجن كما يجب أن تكون » .

ومضى فى الحال مطلقا لسيارته العنان . وترك جيم واقفا فى الطريق.

وكانت المسافة التى تفصله عن اندروجونز ثمانية عشر ميلا . ولكن لم تكد تمضي نصف ساعة حتى كان يقطع الطريق الرئيسي في المدينة . وعبر ميدان المحكمة ، ولم يكن الوقت قد تجاوز الثانية باكثر من بضع دقائق ، واتجه راسا فى شارع مابل الى بيت القاضى بن الان . ومر فى طريقه بمحطة البنزين التى تفتح ابوابها طول الليل ، ورأى ثلاثة رجال او اربعة يقفون بجانب سيارة تملأ خزانها بالوقود ، واسرع حتى لا يلحظه احد . وكان على ثقة من أن الرجال يستعدون للذهاب الى فلورى برانش ليشتركوا فى المطاردة .

وعندما وصل الى المدرج الممتد امام بيت القاضي بن الان ، ادار السيارة بعنف ، واتجه بها الى اسفل الجناح الذى بنى ليكون مدخلا للعربات . وخرج من السيارة باسرع ما يمكنه ، فحتى باب السيارة لم يضع اى وقت في اغلاقه .

وارتقى الدرج ، وعبر المدخل وبدأ يطرق الباب بعنف .

وكان القاضى بن الان احد قضاة محكمة اقليمية اكثر من عشرين عاما ، واعتزل منصبه عندما بلغ الخامسة والستين من عمره . وماتت زوجته منذ احد عشر عاما ، وكان وحيدا في العالم . ولو كان له أقارب مقربون ، فلم يكن احد فى اندروجونز يعلم عنهم شيئا ، لانه لم يكن يذكر شيئا عن هذا الامر لأحد . وكان الزوار الوحيدون الذين يستقبلهم في بيته هم السياسيين . وكانوا يغادرون البيت بمجرد الانتهاء من مناقشة الامر الذى جاءوا من اجله ، ولم يكن احد منهم يبقى للقيام بزيارة ودية . وكان القاضي بن الان يربى العصافير في الفناء الخلفى . والبيت نفسه أكبر بيوت اندروجونز وأكثرها بياضا . وكان مكونا من ثلاثة طوابق ذات أعمدة دائرية غليظة تمتد من الارض حتى السقف . وكان الحزب الديمقراطى في مقاطعة جولى قد انقسم الى تكتلين ، تولى القاضي بن الان قيادة التكتل الاكبر منهما . ولم يخسر جناح الديمقراطيين الذين يتزعمهم الان اية انتخابات منذ ان تولى قيادتهم . وكانت المقاطعة يحكمها السياسيون الذين اسعدهم الحظ بأن يكونوا على صلات طيبة به . وكانت ندرة عدد الناخبين الجمهوريين في المقاطعة قد قضت منذ فترة طويلة على امكانية خوض احد الجمهوريين لأية معركة انتخابية لتولى احد المناصب ، وكانت اصوات الجمهوريين القليلة قد توزعت بين تكتل الحزب الديمقراطى .

بعد دقائق قليلة فتح الباب واردلو ، الخادم الزنجى للقاضى بن الان . وكان واردلو يصغر القاضى الان بعدة سنوات . ولكن مظهره كان يبدو وكأن عمره ضعف عمر القاضي . فكان شعره أبيض كالقطن ، وقامته مقوسة . وكان يسير في اضطراب وهامته منحنية .

وازاح جيف واردلو من طريقه ودخل ، وهو يصفق الباب خلفه ، وابتعد واردلو من طريقه ، فلم تكن هذه هى المرة الاولى التى يأتى فيها جيف ليرى القاضي وهو في عجلة من أمره .

وكان القاضي بن الان في انتظار جيف في غرفة المكتبة . وكان مرتديا ثياب النوم ، وفى قدميه خف ، وقد وضع واردلو حول كتفيه بطانية ذات لونين ابيض وازرق . وكان جالسا الى مكتبه .

وتساءل جيف في الحال ، وهو يقف امامه كانه سجين مقدم للمحاكمة : « ما الامر ، أيها القاضي ؟ » .

ونظر اليه القاضي دون ان تلوح على وجهه ابتسامة . ولم يذكر جيف انه رآه من قبل وعلى وجهه مثل هذا التعبير الدال على الانزعاج.

وقال : « لقد امضيت وقتا طويلا لكي تصل الى هنا لزيارتي يا ماكيرتن . ان في استطاعتي ان اقطع هذه المسافة عشر مرات في ذلك الزمن . »

« لقد كنت هناك في طرف المقاطعة البعيد ، بالقرب من لوردزكريك، عندما علمت انك تريد رؤيتي » .

فتساءل بصبر نافذ : « وماذا كنت تفعل هناك في هذا الوقت من الليل ؟ لماذا لم تكن في فراشك ؟ »

ونظر اليه جيف بامعان قبل ان يجيب . فقد كان القاضي بن الان قد ارسله ليصطاد السمك ست مرات أو ثمانية في مدى السنوات العشر الماضية ، وتساءل عما اذا كان القاضي غاضبا لأنه قرر مرة واحدة من تلقاء نفسه ان يذهب لصيد السمك دون ان يطلب منه ذلك .

واخيرا قال : « كنت ذاهبا لصيد السمك ، أيها القاضي » .

وزمجر القاضي بن الان وهو يحكم وضع البطانية حول كتفيه .

وقال بلهجة تدل على خطورة الامر ، وكأنه على وشك أن يصدر من فوق منصة القاضي : قرارا هاما : « انها لمشكلة خطيرة يا ماكيرتن . اجلس يا ماكيرتن . »

وجلس جيف .

وقال القاضي وهو ينظر الى جيف ويفكر : « ان هذا الامر يبدو اكثر سوءا في كل لحظة . وهذا ما يجعله خطيرا . وسوف يحل موعد الانتخابات التمهيدية بعد اقل من اربعة اشهر . وهذه احدى المرات التي يجب ان نتأكد فيها من الارض التي نقف عليها » .

واوما جيف برأسه .

« ما هي الاماكن التي شوهدت فيها الليلة منذ ان حدث ذلك الأمر ؟ »

فقال جيف مسرعا : « كنت نائما في فراشي حتى تجاوز الليل منتصفه بقليل . وبعد ذلك اعددت نفسي ، وقطعت معظم الطريق الموصل الى لوردزكريك . ولم يرني احد الليلة فيما عدا زوجتي ونائبي » .

ونظر اليه القاضي ، وكأنه يدير في ذهنه امكانية ان يكون جيف كاذبا .

وقال : « سوف نرى » .

ودخل واردلو الغرفة في صمت ، وهو يجر قدميه العريضتين فوق السجادة دون احداث أية ضوضاء . وذهب الى الركن المجاور للباب واتخذ مكانه المعتاد .

وبدأ جيف يقول في قلق : « انني لابغض ان اتناول اخوتي البيض بأي قول ، أيها القاضي ، ولكن اولئك القوم الذين يقطنون تلك التلال الرملية لديهم بعض المفاهيم الغريبة فيما يتعلق بعلاقتهم بالزنوج . لقد اكتشفت مرة امرأة بيضاء تقيم مع رجل زنجي هناك ، ولكنهما فرا قبل ان اقدم على أي اجراء . وهذه الفتاة كيتي بارلو قد تكون صادقة ، ولكنها ايضا قد تكون كاذبة » .

وقال القاضي وهو يضطجع الى الخلف ، ويجذب البطانية تحت ذقنه : « هناك يا ماكيرتن عدد غير قليل ممن كان لهم دور في هذا الامر . والشخص الذي يسبب لي اكثر المشاكل هو مسز نارسيسا كالهون . وقد ظهر فجأة موضوع الالتماس الذي تعده ، لدرجة انه لا يوجد على قيد الحياة انسان يستطيع ان يفعل في هذا الأمر اكثر من ان يخمن الاثر الذي سيحدثه على الانتخابات . والامر كله حماقة كبيرة من البداية الى النهاية ، ولكن هذا لن يقضي على المشاكل التي سيسببها ونحن قريبون من الانتخابات الى هذا الحد . وقد تستولي الاحقاد على نفوس الناس نتيجة اغتصاب فتاة بيضاء ، فيوقعون على أية ورقة تقدم لهم .

وصمت برهة يفكر . وبعد فترة استدار لينظر الى واردلو الواقف في ركن الغرفة ، وصاح : « واردلو ، اننى استطيع أن أرسلك الى الجحيم كى تحترق في نار مخلدة لسماحك لهذا الغلام الزنجى ان يغتصب فتاة بيضاء . »

وبدأ واردلو يرتجف . وقال متوسلا ، وقد أخذت شفتاه ترتعدان: « ارجوك ، لا تفعل هذا ، يا سيدى القاضي ! اننى لا اتحدث أبدا عما تجعلنى افعله ما دمت حيا ! »

فقال القاضي ، وهو لا يزال يرمق الزنجى في ركنه الذى يقف فيه: « ان حادث الاغتصاب هذا قد يؤدى الى ان تكتسح المعارضة الانتخابات التمهيدية . قل شيئا ! ولا تقف هكذا ترتجف طول الوقت ! »

فقال واردلو وهو يتلعثم في الحديث : « أتعشم ان تذهب المعارضة كلها الى الجحيم ، وان تحترق في نار مخلدة . » وكان يحاول بكل جهده ان يتذكر ما قاله القاضى حتى يكرره لما يعلمه من ان هذا هو المتوقع منه : « اننى اتعشم ان ترسلنى الى الجحيم لأحرق في النار المخلدة لاننى سمحت لفتى زنجى ان يمس الفتاة البيضاء » .

وتحول عنه القاضى الآن .

وتساءل جيف في امل : « الا ترى اننى يجب أن أسرع الى لوردز كريك في الحال لأبدأ صيد السمك ، أيها القاضي ؟ ولو رحلت الآن لو صلت الى هناك في مدى نصف ساعة . »

وقال القاضي : « يجب أن تبتعد عن الصيد يا ما كيرتن . يجب أن تفعل شيئا يبعث فيك النشاط . فالجلوس طوال اليوم لصيد السمك هو أسوأ ما تفعله . ولن يكون وزنك ثقيلا الى هذا الحد لو انك قمت بالرياضة المناسبة . »

« لقد فقدت الزيادة الموسمية في وزنى فى الربيع ، أيها القاضي . وقد اصبحت اخف وزنا بمقدار خمسة عشر رطلا من الشتاء الماضى . »

واستغرق القاضى الان فى التفكير برهة ، وهو يدير بصره فى الغرفة دون قصد أثناء تفكيره . ثم قال : «لقد قررت انه من الافضل ان تذهب

الى فلورى برانش في الحال يا ماكيرتن ، وان تتظاهر بانك تحاول القبض على ذلك الزنجى . » ووجه إلى جيف نظرة ثابتة : « سوف تبدأ هذه المرأة كالهون في الحصول على التوقيعات على التماسها عند بزوغ الفجر . فاذا استجاب لها الناس ، وهو ما أخشى ان يحدث ، فان هذا يعنى اننا يجب أن نحمى مصالحنا بالوقوف الى جانب الاغلبية . اننى لا اقر ارسال الزنوج الى افريقيا ، أو الى أى مكان آخر ، حتى ولو وقع على الالتماس كل ناخب في مقاطعة جولى . ولكننى لا استطيع أن أدع مشاعرى الشخصية تؤثر في في وقت كهذا ، ان المحكمة مليئة برجالنا الذين يتوجهون الى لكى احتفظ لهم بمناصبهم ، يا ماكيرتن ، وانت كذلك تود الاحتفاظ بمنصبك ، اليس كذلك ؟ »

« اننى بكل تاكيد اريد ذلك ايها القاضى ولكن .. »

« اذهب اذن الى هناك فى الحال ، وتظاهر بانك تحاول القبض على ذلك الزنجى ، وفي نفس الوقت اضف الى حديثك تلميحات يفهم منها انك اذا قبضت عليه ، فمن الممكن ان يؤخذ منك اذا ما طلب ذلك عدد كاف من المواطنين . وفى الصباح ستكون لدى فرصة لأعلم مدى التقدم في موضوع التوقيع على الالتماس ، وعندما اتوصل الى ما يجب عمله ، فسوف ابلغك .. »

ووقف القاضي بن الان . وسقطت البطانية على الارض . واستأنف حديثه قائلا : « ان لنا جميعا مصالح كبيرة فى مناصب المقاطعة ياماكيرتن، ولا يجب ان ندع المعارضة تبعدنا عنها بعد كل هذه السنين . »

وودجيف لو يستطيع ان يقترح انه من الافضل ان يذهب الى لوردزكريك وينتظر هناك حتى يحسم الامر ، ولكنه بدأ يفكر في احتمال هزيمته في المنافسة على منصب الشريف ، وقرر ان يفعل ما طلبه منه القاضي بن الان .

وكان من الصعب عليه ان يتخيل نفسه بعيدا عن منصب الشريف بعد كل تلك السنوات من الاقامة في الطابق العلوى لمبنى السجن ، ولو فقد هذا المنصب ، فسيكون عليه ان يعمل في الزراعة ، فلم يكن يدرى ما يمكنه ان يقوم به من عمل غير هذا ليكسب قوته .

ودق جرس التليفون الموضوع على المكتب بشكل جعل ثلاثتهم يقفزون من اماكنهم . وتحرك واردلو ليجيب على التليفون . ولكن القاضي الان التقط السماعة ، واعاد واردلو الى ركنه باشارة من يده .

وتساءل صوت امرأة : « اهذا هو القاضي الان ؟ »

واجاب بالايجاب في صوت مزمجر .

« ايها القاضي الان ، انني فى شدة الاسف لانني اطلبك في منتصف الليل على هذه الصورة ، ولكنني منزعجة الى ابعد حد . انني مسز اندرسون من فلورى برانش . لقد ذهب زوجى مع بعض الرجال الآخرين ليطاردوا فتى زنجيا اسمه سونى كلارك ، وانا اخشى ان يطلق عليه الزنجي الرصاص او يصيبه باذى . وانا اعلم ان ذلك الزنجي معه بندقته من نوع ما ، وانه قد يطلق النار على زوجى . الا تستطيع ان تفعل شيئا ؟ الم يذهب الشريف بعد ليقبض عليه ؟ هل علمت بما حدث بعد منتصف الليل انني هنا بمفردى ، وقد يقتحم ذلك الزنجى المنزل ويؤذيني . انني اعتقد ان واجب الشريف ان يقتفى اثره ويقتله . متى يتم هذا ؟ »

واطرق القاضى الان براسه اعياء امام التليفون ، وقال بكل ما يستطيع من هدوء :

« لعله من الأفضل ان تتصلى تليفونيا بمكتب الشريف يامسز اندرسون . وسوف يساعدك الشريف . مساء الخير . »

ووضع السماعة مكانها وصاح :

« واردلو ! لو انني ضبطتك مرة تغتصب فتاة بيضاء لمزقت احشاءك ! اتسمعنى ! »

وقفز الزنجى العجوز من مكانه وكأن احدا وخزه بابرة . وقال بعد ان فتح فمه واغلقه عدة مرات : « اجل يا سيدى القاضى . سمعتك . لو انك ضبطتنى مرة اغتصب ... » وحرك لسانه حتى يتمكن من التفوه بالكلمات التى يعلم ان عليه ان يكررها : « لو انك ضبطتنى مرة المس فتاة بيضاء ... » وتوقف مرة اخرى وقد خنقته الكلمات : « لو انك ضبطتنى مرة ، فانهم يجب أن يمزقوا احشائى » .

وترنح في اضطراب حتى استند الى الجدار وهو يعتمد عليه بيديه.

ونظر جيف بقلق الى القاضي الان ، وهو على وشك ان يحاول اقناعه بان يسمح له بالذهاب الى لوردز كريك ، على الاقل حتى بزوغ النهار . وكانت لديه ثقة في حكمة القاضي الان في وقت كهذا ، ولكنه لم يستطع أن يبعد عن ذهنه نصيحة زوجته بان يبتعد عن فلورى برانش .

ولو اتيحت للجمع المحتشد في فلورى برانش الفرصة للقبض على الزنجي قبل ان يصل الى هناك ، فلن يتورط فى مجازفة تفقده اصوات عديدة من الناخبين . وفي المرة الماضية ، لم تزد الأغلبية التى فاز بها على مائة وستة وخمسين صوتا . وكان لا يزال ينتظر فرصة يقترح فيها أن يذهب الى لوردز كريك وينتظر هناك على الأقل حتى بزوغ النهار ، عندما تكلم القاضي الان قائلا : « كم عدد الرجال الذين تستطيع الحصول عليهم في هذه الساعة من الليل ياماكرتن ؟ »

وغاص قلب ماكيرتن وقال : « لم افكر في هذا على الاطلاق ، ايها القاضى . من الصعب تحديد ذلك . ولكننى اعتقد اننى لا أستطيع الحصول الا على عدد قليل على اية حال . ولعل الجميع قد ذهبوا للاشتراك فى المطاردة » .

وتحرك القاضي الان من خلف مكتبه ، وهو يضرب بركبته ثوب النوم . ونظر الى جيف ، وكانه رجل عجوز يتهيأ لاداء الصلاة . وقال بصوت ينبض بالقوة والسلطة فى هذه الغرفة ذات السقف المرتفع : « من الافضل ان تشغل نفسك بجمع أكبر عدد ممكن من الرجال . ويجب ان تكون هناك في خلال الساعة القادمة لترى ما يمكنك ان تفعله ، دون ان تقدم على اى عمل . وما ان يستقر رأيى على الاتجاه الذى سنقفز فيه ، فسوف ابلغك بذلك متوقعا منك ان تتصرف طبقا لما اقوله . وقد يبدو لى في ضوء يوم جديد انه من الحكمة ان اتخذ بعض الخطوات في مهاجمة الاعمال التى تقوم بها مسز نارسيسا كالهون . وساحاول ان احصل من المحكمة على حكم يقضي بانها ليست في كامل قواها العقلية . وسيكون هذا الحكم فعالا في تقييد نشاطها فترة من الزمن . » واتجه نحو الباب .

« انني سعيد لأنني استطعت ان اجدك قبل ان تخفي نفسك في لوردزكريك، ياماكيرتن . »

ونهض جيف على قدميه ، و هو يدفع بثقل جسمه الى اعلا ، ويوازنه فوق قدميه .

وقال محتجا ، بعد ان اصبح عاجزا عن تمالك نفسه اكثر من ذلك : « ولكن ذلك الجمع من الرجال المحتشدين في وقت كهذا قد يجعل قدرا كبيرا من الفراء يتطاير في الاتجاه المضاد . انني او من دائما بعدم السير ضد ارادة عامة الناس .

والى جانب ذلك ، فانني أود ان تظل عملية الشنق هذه نظيفة سياسيا . »

وتوقف القاضي بن الان عند باب الغرفة واستدار برهة قائلا : « ستكون عملية الشنق هذه نظيفة كقطعة الصابون ياماكيرتن . وسوف اتدبر هذا الامر . »

واستدار القاضي وخرج مغادرا الغرفة . وعندما وصلا الى الردهة ، اتجه جيف الى الباب . وفتحه له واردلو ، ثم اغلقه بصوت مرتفع عقب ذهابه .

الفصل الخامس

كان حشد كبير من الرجال قد تجمع في الفناء الامامي لمنزل باراو . وكانت جماعات منهم تقطع المسافة بين البيت والمخزن مرات عديدة ، في حين كان البعض الآخر يقف في الحقول المحيطة بالمنزل في جماعات مكونة من شخصين أو ثلاثة . وكان اغلب الرجال اصدقاء وجيرانا ، وهم مثل شب نفسه ممن يستاجرون أرضا من بوب واطسون .

وكان أول من وصلوا الى البيت قد اشعلوا نارا ينبعث منها الدخان في الهواء لابعاد البعوض . وكلما مضي الوقت كان الامر يبدو شبيها اكثر فاكثر ببداية العمليات الاسبوعية العادية لصيد السنجاب الامريكي التي يشترك فيها كل فرد تقريبا في هذا الجزء من المقاطعة .

وفجاة ظهرت في الزقاق الاضواء الكاشفة لاحدى السيارات على بعد ربع ميل . وبعد بضع لحظات سرى بين الحشد ان القادم هو الشريف جيف ماكيرتن جاء يطلب منهم العودة الى بيوتهم ويدعوه يلقى القبض على سونى كلارك . ولم يتبادلوا غير كلمات قلائل وهم يرقبون السيارة اثناء اقترابها من المنزل ، ولـــكن جميع الرجال الحاضرين كانوا على استعداد لمقاومة اى جهد يبذل لصرفهم عن المطاردة ، وتفوه بعضـــهم بكلمات التهديد ضد الشريف ، ولكن اغلبهم انتظروا بوجوه متجهمة ليروا ما سوف يحدث .

وقال احد الاشخاص بصوت مرتفع ، وكل كلمة من كلماته تحمـــل تهديدا : « من الافضل لجيف ماكيرتن ان يبتعد عن هذا الامر . وليس من مصلحته ان يزج بنفسه هنا الآن . »

وتحرك الجمع الى الامام محيطين بالسيارة عند توقفها في نهـــاية

الزقاق . وصوبت الى السيارة اضواء صادرة من عديد من الكشافات، وفتحت جميع أبواب السيارة . ولم يكن الشريف هو الذى في السيارة. وكان الرجل الذى هبط منها وعيناه تطرفان في خوف تحت تاثير الاضواء الباهرة حلاقا في اندروجونز اسمه ديلوتش .

وتساءل قائلا وهو يلتصق بالسيارة : « ما خطبكم ايها الناس ؟ انني لم أفعل شيئا . »

وسأله احد الواقفين مندفعا وسط الحشد ليقف أمامه : « ماذا تريد هنا ؟ »

فقال موضحا مجيئه : « لقد سمعت عن زنجى اغتصب فتاة بيضاء، واردت ان اساعد فى المطاردة . وقد اشتركت في مطاردة الزنوج من قبل، ولم اشأ ان تفوتنى هذه المطاردة . »

وقال شخص آخر في الحشـد : « انه على مايرام . انه يقص لى شعرى في المدينة احيانا . وقد عرفته منذ فترة طويلة . »

وعاد الحشد الى الفناء مما جعل الحلاق يحس باطمئنان أكبر . وقبع الرجال حتى النار المشتعلة وتساءل :

« ألم يحدث شيء بعد ؟ »

ولم يقل احد شيئا ولكنه رأى بعض الرجال يهزون رءوسهم .

وقال الحلاق : « لقد كنت افكر منذ بضعة أيام فقط فى ان الوقت قد حان لكى يحدث أمر كهذا مرة أخرى . فقد انكمش الزنوج ما يقرب من عام كامل حتى الآن ، منذ عملية الشـنق التى حدثت في ريمرود . وكنت جزعا من ان تحدث العملية التالية في الطرف الآخر من الولاية ، في مكان بعيد جدا لدرجة لن تتاح لى معها الفرصة للذهاب الى هناك. ولكن هذا هو ماحدث . ولوانكم عدتم بذاكرتكم الى الماضي لوجدتم ان عمليات الاغتصاب التى يقوم بها الزنوج تحدث مثل حركة الساعة . انني اتابعهم منذ ان بدأت اعمل حلاقا في اندروجونز منذ تسع سنوات. »

وبدا أن الجميع يتفقون معه فيما قال ، ولكن احدا لم يقل شيئا .

وكان معظم الرجال الواقفين حول النار فلاحين ، وكانوا جيرانا لشب طوال حياتهم تقريبا . وكان هناك بضـعة رجال فقط من اندروجونز ، ولكنهم كانوا يعتبرون غرباء لانهم من المدينة . وكان جيران شب يعتبرون المشكلة مسالة شخصية خاصة بهم ، ويمتعضون عندما يتصرف الرجال القادمون من اندروجونز كما لو كان لهم الحق في ان يوجدوا هنا كاى شخص آخر .

وقال الحلاق : « لقد كانت المرة الاولى التى اشـتركت فيها في مطاردة احد الزنوج منذ ثلاث سنوات ، وتلك هى المرة التى شنقنا فيها ذلك الزنجي في مقاطعة فيني وصدقوني ، لقد كان القبض عليه عملية عسيرة ! فقد استغرق منا العثور عليه ثلاث أيام بلياليها لأنه كان مختبئا في احد المستنقعات . وقد حدث هذا تقريبا فى نفس الوقت من العام الذى يحدث فيه هذا الامر الآن ، أى منتصف الصيف . »

وكان قد جرى بين الرجال قبل مجيء حلاق اندروجونز حديث طويل عن حادث الاغتصاب ، ولكن احدا لم يعلم على وجه اليقـين حقيقة ما حدث . بل لقد كان بعضهم حتى ذلك الحين ، لا يزال الشك يراودهم .

ولم يتردد اثنان أو ثلاثة من الرجال الاكثـر تقدما في السن فى القـول انه يبدو غريبا ان تكون مسز نارسيسا كالهون ، التى يعلم الجميع انها هى التى تروج للالتماس الذى يطالب باعادة الزنوج الى افريقيا ، هى الشخص الوحيد الذى قال ان كيتي بارلو قد اغتصبها سوني كلارك . وكيتي نفسها لم تفتح فمها بكلمة واحدة حتى الآن عن هذا الامر ، ولم يستدع لفحصها طبيب . ونفس هذه الحفنة من الرجال لم تكن تميل الى تصديق ان صبيا زنجيا في الثامنة عشرة من عمره له مثل سمعة سوني كلارك الطيبة يمكن ان يزعج فتاة بيضاء ، حتى ولو كانت كيتي بارلو ، الا اذا كان قد صادف تشجيعا كبيرا . وقال واحد أو اثنان منهم صراحة ان القصة باكملها تبدو وكأن مسز نارسـيسا كالهون قد دبرت خطـة تساعدها على جمع التوقيعات على التماسها .

ولكن معظم الرجال كانوا على استعداد لتصديق اى شيء يقال ضد احد

الزنوج . وكان احدهم هو اسكار دينت الذى يدير ورشة لنشر الخشب عند مستنقع اوكونى في الطرف الاقصي من المقاطعة ، وقد عرف بقتاله للزنوج تحت اى حجة يمكنه التوصل اليها . وكان اسكار غالبا ما يتفاخر بانه قتل كثيرين من الزنوج الى حد انه لا يستطيع ان يحصيهم . وفي الشتاء الماضي ، قتل زنجيا باطلاق الرصاص عليه عند معســكر جمع الاخشاب الذى يمتلكه ، وقتــل آخر باســتخدام عتلة . ولم يقــدم ابدا للمحاكمة على جرائم القتل التى ارتكبها ، لانه كان يزعم دائما انه اقدم على ذلك دفاعا عن النفس . وبعد محاولات عديدة فاشلة لاتهامه بارتكاب جرائم القتل ، كف المدعى العام للمقاطعة عن هذه المحاولات ، بعد ان تبين له ان ذلك كان على حساب منصبه .

وخمدت الاثارة التى أشعلها قدوم حلاق اندروجونز الى الفناء ، وخفتت الاصوات . وكان معظم الرجال يقفون حول النار يراقبون فى الصمت الدخان المتصاعد منها .

اما اولئك الذين استمروا فى الحديث ، فقــد كانت افكارهم تدور حول الاسعار التى سيصل اليها القطن في هذا الموسم . فاذا هبط السعر عن ثمانية ســنتات للرطل ، فان هذا يعنى أن على الكثيرين منهم أن يخفضوا من كميات الطعام التى يتناولها فى الاثنى عشر ساعة القادمة . أما اذا زاد السعر على عشرة سنتات للرطل ، فانهم لن يتمكنوا فقط من تناول طعام جيد ، ولكنهم سيستطيعون كذلك ان يشتروا بعض الملابس الجديدة وبضع قطع من الاثاث الجديد . فاسعار القطن هى ، على مدار الايام ، أهم شيء في حياتهم .

ولم يكن والد كيتى قد عاد الى البيت بعد ، وكان شب قد انطلق في احدى السيارات قبيل منتصف الليل ، ولم يعلم احداين ذهب ولا متى يعود . وقال عند ذهابه انه لا يريد أن يعمل احد شيئا الى حين عودته . ولما كان هو والد كيتى ، فقد احترمت رغبته . وكان كل مايتعلق بالاعداد للمطاردة متوقفا على شب ، ولا يمكن عمل أى شيء قبل عودته .

وكانت كيتى داخل المنزل تحت رعاية مسز نارسيسا كالهون .

وكانت نارسيسا قد جاءت بكيتى الى البيت فى ذلك المســاء قائلة انها ستكمث معها اثناء الليل . وكانت قد اعدت نفسها الآن تبدأ في الصباح الباكر ، بمجرد تناول طعام الافطار ، في جميع التوقيعات على التماسها .

وكانت النار تخمد بسرعة فى الفناء عند نهاية الممر المؤدى من الباب الامامى الى الزقاق . وكان الرجال قد تفرقوا مرة اخرى ، ووقفوا في جماعات صغيرة يتحدثون بأصوات منخفضة .

قال شخص يقف بجوار النار : « تستطيعون أن تركنوا الى شب بارلو . ولست ادرى ما ينوى أن يفعله ، ولكن مهما كان ما ينويه فانا معه . انه ربما يعلم اين يختبىء ذلك الزنجى ، وذهب ليأتى به بمفرده وهذا جدير بشب . »

وقال رجل آخر : « اننى اود ان ابدأ ، فلا معنى لمجرد وقوفنا هكذا دون أن نفعل شيئا . اننا نستطيع ان نقبض على ذلك الزنجي قبل بزوغ ضوء النهار ، لو اننا اقتفينا أثره . »

وقال رجل آخر : « انها ابنة شب التى سببت كل هذا . ومادام الامر كذلك ، فمن الصواب أن ندعه يتصرف فى الامر كما يشاء . »

وكان شب قد اكتسب فى مقاطعة جولى سمعة ترتكز على انه اكثر الرجال قابلية للاستثارة . ولم تقتصر جرائم القتل التى ارتكبها على الجنس الزنجى ، لأنه كان يتصرف دون ابطاء ، اذا ما اثار غضــبه احد . وكان آخر من قتلهم شخصا غريبا ، رجلا ابيض لا يعرفه احد . ولم يزح الستار ابدا عن المكان الذى جاء منه ، والى اين كان متجها ، وحتى اسمه لم يعرف . ولم يكن هناك سبب تقريبــا لان يقتله شب . فقد دخل الغريب الى الفناء في الساعة العاشرة تقريبا من صباح احد الايام، وتناول من البئر شربة ماء دون ان يطلب ذلك من احد . وبتصادف ان كان شب جالسا عند مدخل البيت ، ولم يفه بكلمة ، وعندما كان الغريب يغادر الفناء ، سار شب اليه وذبحه بمطواته ، ورقد الرجل في مكانه حتى بعد الظهر وهو ينزف حتى مات . وعند الاستجواب ، سال المحقق

شب عما اذا كان يعتقـد ان الرجل كان أصم أبكم ، وعندما اجاب شب بانه لا يعلم شيئا عن ذلك » قال المحقق انه لن يقدم مواطنا للمحاكمة بتهمة القتل لمجرد انه جاهل . وقال شب بعد ذلك انه لا يحب ان يدعوه احد جاهلا ، ولكنهما كانا كلاهما عضوين في جناح الحزب الديمقراطي الذي يتزعمه القاضي الان ، ولذلك فقد أبدى استعداده لأن ينسى الامر اذا مافعل المحقق مثله هو الآخر .

واضيء النور في ردهة البيت ، وجاءت كيتي الى الباب الامامي . ووقفت هناك برهة تحملق في الظلام . وعرفها في الحال الرجال الذين رأوها واقفة في مكانها . واقتربوا من مدخل البيت حتى يشـاهدوها بوضوح أكبر .

وهمس احد الرجال لشخص يقف بجانبه : « لم أكن اعلم انها كبرت الى هذا الحد . انها فتاة كبيرة الآن . لقد حسبتها أصغر من ان تنظر لرجل »

وقال الرجل الآخر : « لقد رايتهـا عدة مرات منذ عام أو نحو ذلك ، ولكنني لم ألق اليها بالا على الاطلاق . فكنت أعتبرها دائمـا واحد من الصغار » .

وقال احد الرجال مقتربا من المدخل : « ربما كانت واحـدة من الصغار في الماضي . ولكنها لم تعد صغيرة الآن . انها جسـورة كالكلبة التي تلتهب الدماء في عروقها . انظر اليها وهي واقفة هناك . »

وكانت آني بارلو ، أم كيتي ، قد ماتت منذ سنتين . وكانت كيتي قد اكملت عامها الثالث عشر عنـدما ماتت امها . وقد سقطت امها في البئر صباح احد الايام عندما كانت تجذب منه ماء تملأ به وعاء الاستحمام في الفناء الخلفي . وكان شب قد افتقد آني في نفس ذلك المساء عنـدما عاد الى البيت لتناول طعام العشاء ، فوجد أن الطعام لم يعد ويوضع على المائدة في الموعد المحدد . وفقد اعصابه وطرد كيتي من البيت وجعلها تقضي الليل وحيدة في الغابات . وحسب شب ان أمرا قد ضايق آني فذهبت الى الحقول غاضبة لتقضي هناك بعض الوقت ، ثم تعود اثناء الليل او في الصـباح الباكر لتعد له طعام الفطـاره .. وكان علـى

ثقة من أنها عندما تعود سـتكون رقيقة كما كانت دائما . وذهب الى فراشه تلك الليلة ونام بعمق . وعندما وجد انه سيقوم باعداد طعـام الافطار ، استقر عزمه على ان يضربها علقـة عنيفة عندما تعود . ولم تعـد حتى بعد الظهر ، وبدأ شيء من القلق يسري في نفس شب . وعنـدما حل الظلام ، ذهب الى بيت بوب واطسون وجاء بستة من الزنوج يساعدونه في البحث عنها في الحقول والغابات بالقرب من البيت . وظلوا يبحثون طوال تلك الليلة ، واستمر بحثهم حتى ظهر اليوم التالي ، ولكنهم لم يعثروا لآني على أثر . واخيرا ارسل شب الى مقاطعة سميث يستفسر عما اذا كانت قد ذهبت الى هناك لتقيم مع أبيها واخواتها ، ولكن الرد جاء بانهم لم يروها هناك . وظل شب يبحث قليلا كل يوم طوال ما تبقى من أيام الاسبوع ، وما ان حل يوم الاحد حتى كاد ييأس تماما . واخيرا استقر رأيه على ان آني قد فرت الى اتلانتا أو جاكسونفيل أو احدى المدن الكبيرة الاخرى . وفي ساعة متأخرة من بعد ظهر يوم الاحد ، كان يسحب من البئر دلوا من الماء عندما ارتطم الدلو في قاع البئر بشيء كان يعلم انه يجب الا يكون هناك . واحضر مرآة الزينة التي تستخدمها آني من البيت ، وجرى عائدا ، وسلط داخل البئر شعاعا من الضوء . وميز في الحال ثوب آني القطني الاحمر المخطط . وعندما اكتشف ان آني كانت في البئر طوال ذلك الوقت ، تملكه غضب اشد مما لو كانت قد فرت هاربة من البيت . وبدأ يصيح مناديا كيتي وهو يلقي بالاشياء في البئر ، وجرت كيتي هاربة الى الغابات خوفا من ان يرميها في البئر مثل جميع الاشياء الاخرى التي تقع يده عليها . ولم يكن هناك من يوقفه ، فاسـتمر في ذلك حتى كان معظم كومة الخشـب قد القي في البئر . واستمرت كيتي بعيدة عن البيت حتى منتصف الاسبوع التالي . وحتى في ذلك الحين ، كانت تخشى ان تعود الى البيت كي تقضي فيه الليـل خلال ما تبقى من الصيف ، في الوقت الذي كان ابوها يحفر فيه بئرا جديدة .

وتجمع الرجال الواقفون في الفناء حول حافة مدخل البيت حتى يمكنهم ان يشاهدوها بصورة افضل وابتسمت للوجوه المتجمعة حـول الدرج .

وهتف احد الاشخاص منفعلا : « هيه ، كيتى ! »

ومالت الى الامام وهى تبتسم للرجال .

وهتفت نفس الشخص بصوت أعلى من ذى قبل . « هيه ، كيتى !»

وانارت كيتى المدخل ، فاصبح الفناء باسره مضيئا كان الوقت نهارا .

وتراجع بسرعة معظم الرجال الذى كانوا يستندون الى المدخل ، ولكن غيرهم اخذوا مكانهم . وقبل ان يمضي وقت طويل ، كان الجميع تقريبا يقفون في اقرب مكان من المدخل يستطيعون الوقوف فيه . وكانت كيتى لا تزال ترتدى الثوب الذى قد من الامام ، من اعلاه حتى نهايته ، وكانت مسز نارسيسا كالهون قد قالت ان هذه هى الحالة التى وجدت كيتى عليها ، وانها ارادت أن تبين ما فعله احد الزنوج . وكان من الممكن رؤية نارسيسا تحوم خلف الباب ، وهى تحث كيتى على ان تخرج الى المدخل.

وصاح بها احد الاشخاص : « هيه ، كيتى ، كيف حدث ذلك ؟ »

وفتحت الباب السلكى وخرجت الى المدخل . وظلت واقفة مكانها عدة خطوات تجاه حافة المدخل . وكان جميع من في الفناء تقريبا يتزاحمون حول المدخل . وذهبت كيتى الى العمود القائم عند الدرج .

وقال رجل متقدم في السن يقف في المؤخرة : « كانت اعصابى ستثور أكثر من ذلك كثيرا لو ان شخصا آخر هو الذى اغتصب !. »

وقال آخر : « ليست كيتى بارلو بالفتاة التى تتمتع بالسمعة الطيبة . ولكنها ليست غلطتها ، فان اباها لم يحطها بالرعاية الكافية منذ ان وجدت ام الفتاة ميتة . »

فقال الرجل الاول : « هذا صحيح تماما . ولكننى لا استطيع ان اثور لما حدث ؟ »

وكانت كيتى تبتسم للوجوه التى تشرق فى الضوء . واحاطت العمود باحد ذراعيها معتمدة عليه ، ومشيرة الى التمزيق فى ردائها . وتدافع الحشد متجها الى الامام ، كى يلقى افراده نظرة عليها عن قرب ، وهى تحرك فتحة الثوب .

« هيه ، كيتى ، وماذا على انا ! »

وابتسمت ابتسامة عريضة للوجوه التى تتطلع اليها ، ووجهها يلتهب انفعالا .

وشق العديد من الرجال الواقفين عند حافة المدخل تحتها مباشرة طريقهم خارج الحشد ، وتراجعوا حتى بلغوا النار المشتعلة . واخذ ديلوتش ، حلاق اندروجونز ، يشق لنفسه طريقا وسط الكتلة المتراصة . وتجمعوا حول النار التى ينبعث منها الدخان وهم يراقبون كيتى . ولم يقل احد شيئا فترة من استمرت دقائق عدة .

وجاء ميلو سكروجنز ، وهو فلاح يستاجر ارضا ويقطن فى مكان يبعد ما يقرب من ميلين عن الطريق ، ووقف في المكان الذى يقف فيه ديلوتش والآخرون . واخرج من جيبه زجاجة من خمر القمح وادارها على الحاضرين . وبعد انشرب الآخرون تناول هو الزجاجة وافرغها في جوفه .

وقال الحلاق وهو يحرك رأسه فى اتجاه المكان الذى تقف فيه كيتى عند المدخل : « اننى لم ار الليلة شخصا يعرف عنها شيئا . ومن المضحك انها ظلت تعيش هنا كل ذلك الوقت ، وليس لأحد شان بها .

وقال ميلو : « انك لا توجه السؤال للاشخاص المناسبين . فلم تسألنى انا عنها . »

وتزاحموا جميعا حول ميلو . ولكزه الحلاق بكوعه ، وتساءل بسرعة ، وهو يواصل لكزه مرة بعد أخرى :

« هل سبق لك ان لاحظتها تفعل ذلك ؟ »

فقال ميلو مبتسما : « لاحظتها ؟ »

فاوما ديلوتش برأسه عدة مرات وهو لا يزال يلكزه في ضلوعه .

وقال ميلو : « فى الموسم الماضى ، كنت اجمع القطن لحساب بوب واطسون في حقل يبعد عن هنا ما يقرب من ثلاثة اميال ونصف . اذ ان بوب واطسون يمتلك كل الاراضي الواقعة في هذا الجزء من البلاد ، وكل

شخص هنا تقريبا يعمل لديه ، سواء باستئجار الارض منه أو بالمزارعة أو عن طريق أية علاقة أخرى . وكنا فبلغ الثلاثين أو الاربعين في ذلك الحقل نجمع القطن في ذلك الوقت الذى اتحدث عنه .

وتساءل الحلاق بصبر نافذ ، وهو يدير رأسه ناحية كيتى : « وماذا عنها ؟ »

وقال ميلو ، وهو يدفعه بعيدا عنه : « تذرع بالصبر ، اننى اقترب من ذلك الجزء . كنا جميعا نجمع القطن . وكانت كيتى بورلو تجمع القطن هى الاخرى . وقد لاحظت انها ظلت طوال الصباح ملتصقة بالاولاد ، ولذلك فقد قررت حوالى الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم ان اكتشف ما تسعى وراءه . فتخلفت قليلا وراء بقية جامعى القطن ، ولم يمض وقت طويل حتى تخلفت عنهم هى الاخرى . وتحدثت اليها قليلا محاولا ان إعرف حقيقتها ، وظهر لى ان بها من الرغبة مثل ما عند كل النساء . وسألتها على الفور عما اذا كان من الممكن ان تلتقى بى عقب انتهاء يوم العمل فى جمع القطن . فاجابت بانها ستلتقى بى » .

وتوقف عن الحديث وهو يدير بصره فيمن حوله ليرى ان كان احد آخر قد قدم الى حيث توجد النار . ونظر الرجال الآخرون الى كيتى في مكانها عند المدخل اثناء انتظارهم ان يكمل ميلو حديثه . وكان ديلوتش يتواثب في مكانه منفعلا وهو يلكزه .

« وقبل غروب الشمس بقليل ، عندما كان جامعو القطن يغادرون الحقل متوجهين الى بيوتهم ، اشرت لكيتى ، فتبعتنى الى المخزن حيث كنا نضع القطن الذى جمعناه طوال اليوم . فزحفت الى الداخل ، وانتظرت وانا اراقبها من شق فى الجدار عند مجيئها عبر الحقل . ولم تلبث ان قفزت الى الداخل وصعدت فوق القطن لتصل الى المكان الذى كنت فيه . اننى لم ار في حياتى من قبل فتاة مجنونة بالرجال مثلها . وفي أقل من لمح البصر ، كانت قد خلعت ملابسها واصبحت عارية تماما . واود ان اقول لكم هنا اننى لم ار من قبل منظرا ابدع مما رأيت في ذلك الحين . وتمددت فوق القطن ، عارية تماما ، وهى

تبدو ناعمة الملمس . وكان المكان الذى تلتقى فيه ساقاها ببطنها يبدو وكان شخصا قد ضغط باصبعه احد بالونات الاطفال ، وترك مكان الضغط كما هو ، انها ... »

وسرت في الجمع المحتشد حول الدرج حركة . فتوقف ميلو عن الحديث ، واستدار ليرى ما يحدث هناك . كانت كيتى تضحك بعصبية ، وتجمع اطراف ثوبها عند المكان الذى فتح فيه .

وصاح احد الأشخاص بصوت ارتفع فوق الضجيج : « هيه ، كيتى ، لا تنسينى ! »

وبدأ ديلوتش الحلاق يلكز ميلو في ضلوعه مرة اخرى . وكان ميلو يقفز من مكانه في كل مرة يحس فيها كوع الحلاق الحاد . وقال الحلاق يستحثه على الكلام :

« وماذا فعلت بعد ذلك ؟ »

واخرج احد الرجال الآخرين من جيبه زجاجة ادارها بين الحاضرين ، فشربوا منها حتى افرغوها ثم القوها .

وقال ميلو وهو يمسح فمه بظهر يده : « اذا اردتم الحق ، فاننى لم افعل شيئا فى ذلك الحين ، فقد استلقت وحدها بصورة لم اشهدها ابدا في حياتى من قبل . وما فعلته بعد ذلك هو أنها اتجهت الى . وبدأنا نتدحرج ونحن ملتصقان . ويبلغ طول جدار مخزن بوب واطسون ثلاثين أو اربعين قدما في جميع النواحى ، فكنا مرة نرتطم باحد الجدران، ومرة اخرى بجدار آخر فى الجانب المقابل . واخذت تعضنى باسنانها عضا موجعا الى حد أن حسبتها ستقضى على . واخذت اصرخ بصوت مرتفع كان كفيلا بأن يصل الى بعد ميل من مكاننا . واحسبنى فقدت صوابى ، فقد بدأت اضربها بقبضتى يدى . فقد كان الألم الذى احس به شديدا. وكلن يبدو أنها لا تحفل بذلك على الاطلاق ، فقد بدأت تصدر اصواتا كسجع الحمام . ولم يعد عضها لى يؤلمنى بعد ذلك ، وكان كل ما يصل الى مسمعى هو الصوت الشبيه بسجع الحمام . واستمر هذا وقتا لا

أدرى مداه ، ولكن ما ادريه أننا بدأنا نتدحرج مرة اخرى فوق القطن . وارتطمنا باحد الجدران ، فوقفت كانني احد طيور ابو زريق . ولم افعل شيئا . ثم تنبهت اليها وهى تحاول أن تعضنى مرة اخرى . وحاولت ان ابعدها عنى بضربها بقبضة يدى ، ولكنها لم تدعنى اتخلص منها رغم الضرب الموجع الذى كلته لها . وما اذكر انه حدث بعد ذلك ، هو اننى عندما فتحت عينى رايتنا نحن الاثنين ملطخين بالدماء . وكانت اسنانها قد انتزعت فى العضة الاخيرة جزءا من لحم كتفى ، وما زالت الندبة المتخلفة عن ذلك في كتفى حتى الآن . واحسب انها ستظل في مكانها من جسمى بقية حياتى . »

ولم يقل احد شيئا بعدما ان فرغ من حديثه . ووقف الحلاق ديلوتش يحملق فيه . وبعد برهة سار في الظلام متجها الى المخزن .

واتجه ميلو والرجال الآخرون نحو الحشد المتجمع حول درج المدخل .

وصاح احد الاشخاص : « هيه ، كيتى ! »

وشق ميلو لنفسه طريقا ، ووقف يمعن النظر فيها . وقال هامسا لأحد الرجال الذين تبعوه من عند النار : « لا يزال لها نفس الهيئة . هكذا كانت تبدو وتماما في تلك الليلة التى قضيناها في مخزن بوب واطسون » .

وكانت الهوام تحوم حول المصباح المضاء في سقف المدخل ، وعدد كبير منها يحوم حول وجهها . ورفعت يدها وابعدت بعضها . وعندما فتح الثوب ، جمعت اطرافه حولها وهى تضحك .

وهتف في ظلمة الفناء صوت أشد عمقا من أصوات الآخرين : « هيه ، كيتى ! »

واستغرقت في الضحك الى حد جعلها تمسك العمود بذراعيها كليهما كى تسند نفسها .

الفصل السادس

بعد ان غادر جيف ماكيرتن منزل القاضي بن الان ، دلف الى سيارته بقلب مثقل ، وعاد الى المدينة . وبعد ان مر سريعا بمحطة البنزين التى تفتح ابوابها طول الليل ، وقد بدت الآن مظلمة مهجورة ، اخذ يدور ببطء عدة دورات حول مبنى محكمة مقاطعة جولى . وكان مشتت الذهن حول ضرورة اتباع نصيحة القاضي الان لصالح مستقبله السياسي ، ولكنه كان مقتنعا بان الضرر الذى سيعود من التدخل فيما يقوم به جمع من الرجال تلهيهم حمى مطاردة الزنوج ويتلهفون على شنق احد الزنوج - كان مقتنعا بان الضرر الذى سيعود من ذلك سيكون أكبر من النفع . وكان يعلم من خبرته السابقة أن القاضى آلان يعالج الموقف كما لو كان يلعب احد مباريات النرد ، وهو على استعداد ، عندما تحين الفرصة ، لأن يضحى مسرورا برجل واحد لكى يكسب اثنين . واحس جيف بالاسى لما يعلمه من أن الجريمة التى تنذر بالوقوع ، تختلف عن الجرائم الأخرى كالسطو على المنازل وسرقتها او تسلق الاسوار ، فى انها ليست من الأمور التى يمكن النظر اليها من جانب واحد .

ولم يدر كم من المرات دار حول المبنى المرتفع الذى ينتهى ببرج ، والمشيد بالطوب الأحمر ، ولكنه ظل يدور حوله مرة بعد أخرى حتى بدأ يحس بالدوار . واحس بالسيارة تضطرب في سيرها في الطريق ، ولكن ذهنه كان حاضرا فاوقفها . واطل من السيارة ، واستطاع ان يميز الجانب الشرقى من ميدان المحكمة .

وكان يتساءل عمن سيقع عليه اختيار القاضي الان ليخلفه في منصبه اذا ما تحول الناس عنه ، عندما احس فجاة بالم شديد في معدته. وهوى فوق عجلة القيادة .

وعندما فتح عينيه وعاد الى الجلوس ، لم يدر كم من الوقت مر به . ولكنه احس بتحسن كبير . وحاول ان يرى الساعة المضيئة المثبتة في برج المحكمة ، ولكن اوراق الشجر الكثيفة كانت تخفيها عنه.

وخطرت لجيف فكرة لم تدر فى اى جانب نبتت من جوانب ذهنه المضطرب . فقد خطر له انه من الممكن ان يظل بمنأى من الناحية السياسية عن الانغماس فى الاضطرابات الحادثة فى فلورى برانتش . فقد تذكر انه تمنى وهو يدور حول الميدان لو انه استطاع ان يذهب الى مكان ما يقضى فيه ما تبقى من الليل نائما . وقد توصل الآن الى الخطة التى تمكنه من تحقيق الهدفين معا .

وقال محدثا نفسه ، وهو يغادر السيارة ويفرد ساقيه : « بحق الانسان الحى ! لسوف اقضى على نفسى هناك فى وقت كهذا . »

وكان قد احس بتحسن كبير . واصبح على ثقة من انه بدلا من ان يفقد عددا من الاصوات فى الانتخابات التمهيدية القادمة ، فانه سيثير بين الناس قدرا كبيرا من العطف عليه يجعله يحصل هذه المرة على عدد من الأصوات يفوق كثيرا ما حصل عليه في اى وقت مضى .

واخذ جيف يقطع الطريق ذهابا وايابا بجانب سيارته عدة مرات منشطا عضلاته . وكان الحماس قد بلغ به حدا لم يدر معه اين يقف. وانكمش في ظل السيارة ، وتلفت حوله ليتاكد من ان احدا لايراقبه . وخطر له انه لو كان جندى الداورية الليلة يقوم بعمله ، فلن يستطيع ان يتجنب رؤيته له وسط الميدان في تلك الساعة . ولما لم ير احدا ، بدا يسير في الطريق وهو يتساءل عما اذا كان جندى الداورية قد غادر المدينة وذهب الى فلورى برانش .

وسار مسرعا ، وهو يحاذر مع ذلك من ان يصدر عن حذائه فوق الرصيف المصنوع من الاسمنت المسلح اى صوت . وسار في اتجاه الجانب الخلفى من مبنى السجن ، وقد ابتعد عن طريقه مسافة ثلاثة مبان ليتجنب ان يراه احد مصادفة على مقربة من الجانب الأمامى للمبنى .

واحس بانه في احسن حال ، وهو يفكر كيف عثر ، بشكل يكاد يكون عرضيا ، على وسيلة يرضي بها الجميع ، من الناحية السياسة ، بما في ذلك هو نفسه والقاضي بن الان . وكان يرى ان خطته جيدة الى درجة ان كورا نفسها ستكون سعيدة عندما تسمع بها . وسار باسرع مايمكنه ، وهو يطوح جسده الى الامام بخفة كان يظن انه فقدها الى الابد .

وتوقف عند الجانب الخلفى من مبنى السجن ، ومضي ينصت . كان الهدوء شديدا كانه في مقبرة في احد مدافن الاقاليم . وكانت اضواء الطريق تتخلل الاشجار ملقية على الارض اشكالا ذكرته باشغال الابرة الغريبة التى تصنعها زوجته .

وتناول ، وهو يتجه بحذر الى الباب ، حلقة المفاتيح ، واخذ يبحث عن المفتاح المناسب . وفتح قفل الباب ، ولم يحدث غير صرير واحد ناتج عن الصدأ الذى يعلوه . وانصت برهة ، وبعد ان تاكد ان الضجيج الذى حدث لم يجذب اى انتباه ، فتح الباب وخطا الى الداخل. وحرص على أن يترك الباب مفتوحا على سعته .

ووقف جيف فى الظلام الذى يسود غرفة الاقفاص منصتا الى صوت التنفس الثقيل لسام برنسون . وكان يبدو ان وجود سام سيجعل الأمور على ما يرام منذ هذه اللحظة .

وتحسس طريقه في الممر الواقع بين صفى الاقفاص . وكانت الظلمة حالكة في الغرفة لدرجة انه كان عليه ان يتحسس كل بوصة في طريقه وهو يسير في الممر .

ولم يجد اى مشكلة في تحسس المفتاح الذى يفتح كل الابواب في الحلقة ، وفتح احد الاقفاص ودلف داخله . واصدرت المفصلات الصدئة صريرا عاليا اثناء تحريكه للباب ذى القضبان الحديدية ، ولكن تنفس سام برنسون العميق استمر دون توقف . وكان قد اختار احد الاقفاص الواقعة في الجانب الجنوبى من الممر لأنه تذكر انه حبس سام في القفص الذى اعتاد حبس الملونين فيه والواقع في الجانب المقابل .

واغلق جيف الباب ببطء ، محاذرا الا يصدر عنه صرير أعلى مما ينبغي . وبعد ان اغلقه ، مد يده من بين القضبان ، واغلق القفل والقى بحلقة المفاتيح فى المشي ابعد مسافة ممكنة .

وكان يعلم على وجه الدقة ماذا سيقول لبرت في الصباح التالى ، عندما ياتى ليقدم لسام برنسون طعام افطاره . سوف يوضح له انه كان يعمل على تنفيذ اوامر القاضي بن الان عندما اختطفه خمسة رجال ملثمين بالمناديل معقودة فوق وجوههم من ميدان المحكمة وهم يهددونه بضربه بمقابض مسدساتهم حتى يفقد الوعى اذا ما فكر في الصياح . وبعد ان استولوا على المفاتيح التى معه حبسوه في السجن ، والقوا بالمفاتيح بعيدا ، ورحلوا قبل ان يستطيع الصياح طالبا النجدة .

واعتزم ان يقول للقاضي بن الان ان الرجال قد حبسوه في سجنه واخبروه انهم فعلوا ذلك ليمنعوه من تنظيم مساعديه والتدخل فيما يقومون به من بحث عن سونى كلارك . ولن يستطيع القاضي الان أن يحمله مسئولية اخفاقه في تجميع معاونيه كما امره ، وما يساوى هذا في الأهمية انه لن يكون ملزما بالذهاب الى فلورى برانش لينتحر سياسيا بالدخول في صراع مع الناخبين المصممين على القبض على الزنجى .

وضحك جيف بينه وبين نفسه ، ولحمه يهتز في طرب ، وهو يفكر في حظه السعيد الذى مكنه من العثور على هذه الخطة المحكمة . وكان يعلم ان كورا هى الأخرى سيتملكها السرور عندما تكتشف شدة حرصه على مصالحه السياسية . وسوف تغفر له فشله فى اخفاء نفسه في لوردز كريك .

وهمس لنفسه : « بحق الانسان الحى ! لو اننى ذهبت الى فلورى برانش لكنت كاننى اذبح نفسي ، ولكان ذلك عملا احمق من جانبى . »

واحس بالأسف من أجل الفتى الزنجى الصغير سونى كلارك . وغمره شعور بالعجز . وكره ان يفكر في ان حياة الصبى ستنتزع منه ، ولكنه كان يعلم ، والموقف يهدد كيانه السياسي ، ان عليه ان يصون مستقبله باى ثمن . وحاول ان يبعد سونى عن ذهنه بالتفكير في مدى تغلب النعاس عليه .

وكان في القفص مجموعتان من اسرة السجن ، كل مجموعة منهما تحتوى على سريرين فوق بعضهما البعض . وتحسس جيف طريقه الى السرير السفلى الواقع ناحية اليسار . وبحث في جيبه عن ثقاب ، ولكنه لم يجد .. وجلس على السرير وخلع حذاءه . وبعد لحظات كان مستلقيا على ظهره وهو مستغرق فى النوم .

واستيقظ مرة واحدة اثناء الليل ، عندما احس انه سمع عديدا من الرجال يتصايحون في مكان قريب من مبنى السجن ، ولكنه لم يستطع ان يظل مستيقظا وقتا يكفى لأن يفتح عينيه . وادار وجهه تجاه الحائط وعاد الى النوم .

وعندما كان الفجر يبزغ ، أيقظته الاصوات التى تصيح مرة أخرى . واستيقظ مجفلا . وقبل ان يتمكن من ان يتقلب ، كانت الغرفة العالية السقف تضج بالاصوات ، وبعض هذه الاصوات كان مرتفعا . وكان على ثقة من ان احد هذه الاصوات هو صوت كورا .

واستدار سريعا بالرغم من ثقل وزنه ووضع قدميه على الارض .

وصاح محاولا ان ينظر من بين القضبان : « ماذا حدث ؟ »

وعندما اكتسحت عيناه القفص احس ان الأمور ليست كما يجب ان تكون عليه . وتحول عن الباب ونظر الى مجموعة الاسرة المواجهة له. وجلس منتصبا لدرجة ان رأسه ارتطمت بالاطار الحديدى للسرير الذى يعلوه . فقد كانت هناك فتاة زنجية ترقد فوق السرير المقابل له . وجلست فجأة وصرخت بأعلى صوتها .

وفرك جيف عينيه غير مصدق .

وفي ذلك الوقت ، كانت هناك اقدام ثقيلة تندفع مسرعة في الممر . وصاح : « بحق الانسان الحى ! اين انا ؟ »

واستدار ناظرا من بين قضبان الباب . واستطاع أن يرى عديدا من الوجوه الغريبة تبذل جهدها للتطلع الى وجهه . وبعد برهة ادرك ان الوجوه الواقفة في الجانب الآخر من الباب مغطاة بالمناديل ، وانتابه

أحساس مخيف بانه فى حلم ، وليس في استطاعته ان يستيقظ من الحلم. وكانت الوجوه الملثمة تشبه تماما تلك تخيلها بوضوح عندما كان يحبس نفسه داخل القفص . واستطاع ان يرى خلفها جميعا وبصورة غير محددة الملامح المألوفة لكورا وبرت وجيم كوتش .

وصاح بأعلى صوته : « كورا ! »

وجلست الفتاة الزنجية امامه بعيون مذعورة وهى تجذب حول جسدها ملابسها المهوشة . وبعد لحظة كانت تملأ القفص صراخا يصم الآذان .

وصاح وهو يقفز على قدميه مندفعا الى الباب : « يا الهى العظيم يا كورا ! اخرجينى من هنا ! »

وتجمع الرجال الملثمون بالمناديل حول الباب وهم يحجبون كورا عن نظره .

وقال احد الرجال بهدوء : « اين ذلك الزنجى كلارك ، ياشريف ؟ »

واستطاع ان يرى عديدا من فوهات البنادق مصوبة اليه من بين القضبان ، وتراجع الى الخلف خطوة .

واندفعت كورا بين الرجال ووقفت في مواجهته على بعد اقدام قليلة منه . وكانت تحملق فيه في برود .

وتساءلت بحدة : « ماذا تفعل هنا يا جيفرسون ؟ » وعلم منذ اللحظة التى سمع فيها صوتها انه ليس واقعا تحت تأثير حلم . وقالت : « جيفرسون ! »

« كورا ، اننى لم ... »

ونظر الى الفتاة الزنجية من زاوية عينه .

وقال احد الرجال بخشونة : « والآن ، انظر هنا يا شريف . ليس لدينا من الوقت ما نضيعه في الثرثرة . اننا ... »

« اننى جيف ماكيرتن . لا احد يستطيع ان يامر ... »

واندفعت من بين القضبان فوهات عديد من البنادق وهى تلكزه في بطنه في عنف .

وارتفع فى اذنه الصوت الخشن قائلا : « اننا نريد ان نعلم ماذا فعلت بذلك الزنجى كلارك . فقد ذاع انك قبضت عليه وجئت به الى المدينة وحبسته في السجن . ونحن ليس لدينا وقت نضيعه . اين ذلك الزنجى كلارك يا شريف ؟ »

وقال جيف وهو ينهض : « ان ما اعلمه عن ذلك لا يزيد عما يعلمه اى واحد منكم.ولكن احدا لا يستطيع ان ياتى الى مبنى السجن ويحاول ان يبث الفزع في نفسي . لقد انتخبت لهذا المنصب ، واعيد انتخابى مرة بعد اخرى ، وسوف ادير هذا المنصب بالطريقة التى اراها ، مادمت استطيع ان اجعل الناخبين يأتون بى الى هنا . »

وقال صوت آخر : «من الافضل ان تخرج من هنا وتصلح اسوارك ، ياماكيرتن . فعند ما يسمع الناس بما انت عليه هنا فسوف يبدءون في الاحجام عنك بحثا عن مرعى اكثر خضرة . »

وقال الصوت الآخر بصبر نافد : « اين ذلك الزنجى يا شريف ؟ »

فقال جيف بسرعة : « اننى لم ارسونى كلارك على الاطلاق . اننى لاكره ان تلجئوا هنا لهذه الوسيلة فى الارغام ، ولكن الأمر كله كان مجرد مصادفة . لو انكم ايها القوم انتظرتم لحظة ... »

فقال احد الرجال الآخرين : « ان احدا لا يحفل بذلك يا ماكيرتن. اننا نريد ذلك الزنجى . »

وكانت كورا قد اصبحت في ذلك الحين تقف في مواجهته مباشرة . وكانت تحملق فيه وكأنها لم تره في حياتها من قبل .

« اذا كنت تعلم اين توجد مصلحتك ، يا شريف ، فكف عن الوقوف ضدنا ، وسلم لنا ذلك الزنجى . »

وقالت كورا : « ماذا تفعل هذه الفتاة الزنجية معك هنا ياجيفرسون ؟»

فتساءل جيف وهو يستدير مشيرا الى الفتاة الراقدة فوق السرير: « من ؟ هي) »

فقالت متجاهلة حركاته : « لماذا لم تذهب لصيد السمك كما قلت لك ؟ »

وفتح جيف فمه ليتكلم ، ولكن احد الرجال الملثمين دس في صدره فوهة بندقية .

وقال احد الرجال : « ليس لدينا وقت يسمح لنا بان نقف هنا لنستمع اليك انت وزوجتك وانتما تتشاجران .» ثم تحول الى كورا قائلا : « انني آسف لمقاطعتك يا مسز ماكيرتن ، ولكن ليس لدينا وقت نضيعه . » وعاد ليواجه جيف : « اننا نريد ذلك الزنجي كلارك ، ونريده سريعا . ويمكنك انت وزوجتك ان تكملا شجاركما عندما ننتهي . »

« انني لا اعلم اي شيء عن ... »

« هيا ياماكيرتن ، وتخلص من معارضتك لنا ! »

واستدار جيف وهو ينظر الى الفتاة في عجز . وكانت قد انكمشت في الركن القصي من السرير ، واخذت تحملق في البنادق .

وقال جيف في لهفة : « اقسم لكم انني لم ار سوني كلارك . انني لا اكذب ، وانا حريص على مستقبلي السياسي . وهذا هو السبب في انني لا اكذب في مثل هذا الأمر . انكم تعرفونني جيدا الى حد لا تعتقدون معه انني اكذب ، اليس كذلك ؟ »

« ليس هذا هو الوقت المناسب لتوجيه الاسئلة الينا يا ماكيرتن. فنحن الذين نقوم بذلك . »

ونظر جيف من بين القضبان ليرى ما الذي منع برت وجيم من اتخاذ بعض الاجراءات عندما تم الاستيلاء على مبنى السجن بهذه الصورة ، فرأى البنادق مصوبة الى جنوبهما .

وقال جيف متضرعا : « ان كل رجل في مقاطعة جولي يعلم انني رجل احترم كلمتي . وقد كنت دائما اتبع هذه القاعدة منذ ان بدأ اشتغالي بالسياسة . وكان الناس العاديون يعطونني اصواتهم في كل

مرة اخوض فيها المعركة لاعادة انتخابي لهذا السبب وحده . ويمكنكم ان تصدقوا ... »

وقال احد الرجال في خشونة : « يمكنك ان تنقش هذا الكلام على شاهد قبرك . اما الآن ، فكل ما تحفل به هو ان نلقي ايدينا على ذلك الزنجي الذي تخفيه في مكان ما . »

وقام الرجلان اللذان يحرسان برت وجيم بدفعهما في الممر ، وهما يوجهان الاضواء الكاشفة داخل كل قفص يمران به . وبقي رجلان لحراسة جيف ، أما الخامس فقد وقف يراقب كورا .

وقالت كورا وعيناها لا تفارقان وجهه لحظة واحدة :

« جيفرسون ! يالفكرة انك ترقد هنا مع فتاة زنجية في مبنى السجن ! لقد قررت ان ارحل واهجرك الى الابد ! »

وقال الرجل الذي يقف خلفها : « من الأفضل لك يا مسز ماكيرتن ان تظلي في مكانك ، فاننا لن نمكث هنا طويلا بعد الآن . »

وقال جيف متضرعا : « كورا ، انني لا ادري كيف جاءت هذه الفتاة الى هذا القفص الذي اوجد فيه . » واستدار يفحص الفتاة في وجل : « لقد كنت فقط احاول ان اجعل عملية الشنق نظيفة سياسيا . ولست اعلم ... »

وعاد الرجال الآخرون ، وهم يدفعون امامهم برت وجيم وكأنهما سجينان صدر ضدهما حكم .

وتساءل احد الرجال : « اين تخفي ذلك الزنجي يا ماكيرتن ؟ ان ذلك لن يستمر وقت الانتخابات . اليس كذلك يا مسز ماكيرتن ؟ »

واطبقت كورا شفتيها حتى بدتا كخط مستقيم .

وتساءل الرجل وهو يتحول ناظرا الى جيف : « ان مقاطعة جولي لم تكن ابدا تكن تقديرا كبيرا لأي شريف يحب الزنوج . اليس كذلك يا مسز ماكيرتن ؟ »

وتجاهلت كورا السؤال .

وهز جيف رأسه ، وهو يحركها من جانب الى الآخر حتى يراه الجميع . ولم يغفل عن رؤية النظرات الاستفسارية التى كان يوجهها اليه برت وجيم . ولكن اكثر ما كان يزعجه هو نظرة زوجته التى تحمل معانى الفضيحة .

وبدأ يقول في امل : « لقد كنت فى طريقى لصيد السمك في لوردز كريك عندما بدأت كل هذه المشاكل . » وتوقف عن الحديث وهو ينظر من وجه الى الآخر شاعرا بالانهاك والقنوط لما رآه من أن الرجال الملثمين لم يتاثروا بقصته . وشد بيديه حول القضبان قبضة اقوى ، واستانف قائلا : « لقد ذهبت لزيارة القاضي بن الان ، ولكننى انتهيت الى هنا حيث تشاهدوننى الآن . ولم اكن لأدرى اين ذلك الزنجى كلارك ، اذ ان المسافة بينى وبينه لم تكن تقل عن خمسة عشر ميلا . ولا اعلم عنها اكثر مما يعلمه اى شخص ياتى الى هنا .

وصمت الرجال . وكان يأمل وهو يرقب وجوههم الخالية من اى تعبير الا يساله احد كيف حبس فى السجن الذى يشرف عليه ، وفي قفص واحد مع فتاة زنجية .

وقال يحث زوجته على الكلام : « لقد سمعت ماقاله الرجل يا كورا ، فاخبريه اننى اقول الصدق » .

وتجاهلته كورا تماما .

وقال وهو يتحرك مرة اخرى الى الرجال المتجمعين حول الباب : « اننى اخبركم باعتبارى شريف مقاطعة جولى انه ليست لدى اقل فكرة عن المكان الذى يوجد فيه ذلك الزنجى كلارك . هذا هو الصدق الصراح الذى اخبركم به . »

وانسحب اثنان من الرجال . وكان الفجر قد بدأ يضيء الغرفة بلون رمادى قاتم ، واستطاع جيف ان يسمع الرجال يتهامسون بصوت منخفض . ولم يساوره اى قلق في البداية ، ولكنه بدأ يخشي بعد ذلك ان يكون الجدل دائرا بينهم حول رغبتهم في اصطحابه معهم . ونظر الى زوجته متوسلا ، وهو يأمل أن تقدم على مساعدته .

وعاد الرجلان وهما يطلبان من برت أن يعطيهما مفاتيح السجن . فاعطاها لهم دون معارضة . وفتح الرجلان قفص سام برنسون وصوبا اليه بندقية . وخرج سام الى الممر متعثرا في مشيته ، وهو يرتجف فرقا .

وقال جيف بعد أن تحقق مما يحدث امامه : « والان ، توقفوا عن هذا ! ان سام برنسون لم يؤذ أحدا . »

وقال احد الرجال وهو ينظر من فوق كتفه : « اننا فقط سنأخذه معنا خشية الا يظهر الرجل الآخر . »

وكان سام يرتجف من رأسه حتى قدميه ، وعيناه تجفلان في ضوء الصباح الباكر .

وصدر اليه أمر يقول : « قف هناك أيها الزنجى ! »

وقال سام : « ايها البيض ، أرجوكم أيها السادة ، اننى ارتكب أى خطأ ! واشهد الله على ذلك . اسالوا مستر جيف عنى ، أرجوكم أيها السادة . سوف يخبركم مستر جيف بما يعرفه عنى ! »

« اصمت ايها الزنجى ! »

وتكلم جيف : « كفوا عن هذا ! اننى لن اقف ضد ارادة الناس اذا كانوا يريدون القبض على ذلك الزنجى كلارك ، ولكننى ساقف بجانب سام في أى وقت . ان سام لم يؤذ احدا طوال حياته ، ولن اسمح بان يحدث له شيء . »

وقال الرجل : « وماذا يفعل في السجن اذن ؟ »

فقال جيف على الفور : « انه في السجن بصورة مؤقتة هذه المرة . لقد وعدونى هناك في المحكمة بانهم سيرفضون التهم الموجهة اليه ويصدرون حكما ببراءته . ان سام يعمل دائما في تجارة السيارات القديمة ومبادلتها . وعندما يتورط في احدى الصفقات ، فاننى الجأ احيانا الى حبسه بعض الوقت . »

« اننى لا افهم هذا الحديث القانونى . »

وقال سام متوسلا : « ايها البيض ، لو انكم اطلقتم سراحى هذه المرة ، فلن اتاجر ابدا في السيارات . وسوف أغلق عينى كلما رأيت سيارة تعترض طريقى . »

فقال أحد الرجال وهو يدس فوهة بندقيته بين ضلوعه :

ـ اخرس أيها الزنجى ! ان فمك أكبر من حجم وجهك ، وأنا لا أتمالك اعصابى كلما نظرت اليه .

وقال جيف باصرار وصوته يعلو :

ـ ان سام برانسون لم يرتكب مايستحق أن يؤذى من أجله .. لقد حبس هذه المرة لمجرد أنه بادل دراجة قديمة التقطها من فوق كومة القمامة بسيارة مهشمة لا تساوى أكثر من قيمة الحديد الذى تحتوى عليـــه . ولم يكن فى هذا أى ضرر فيما عدا أنه رهنها مقابل ثلاثة دولارات نقدا ، ثم عاد فبادلها مرة أخرى بسيارة قديمة أخرى لا تسير حتى ولو دفعها الناس بأيديهم . وما حدث انه لم يخلص السـيارة القديمة من الرهن قبل غروب الشمس لأنه عاد واشترى الدراجة بثلاثة دولارات . ورفض الرجل أن ياخذ الدراجة القديمة لـكى يخلص السيارة من الرهن . وقد أنفق الدولارات الثلاثة . وهذا هو السبب فى المازق الذى وجد نفسه فيه هذه المرة . ولو تاخر غروب الشمس نصف ساعة عن موعده لكان سام برنسون نظيف اليدين مثل أولئك الذين يديرون البنك .

ولم يقل الرجال شيئا فى الحال . ونظروا الى بعضهم البعض محاولين أن يتتبعوا سلسلة المعاملات التجارية التى اشترك فيها سام .

واستطرد جيف :

ـ ان الجميع يعلمون ان سام مجنون بالسـيارات القديمة مثل عديد من الزنوج . ولا يرغب فى الحصول على رزقه من العمل المعتاد فى الزراعة ، وسام يعمل منذ الأزل فى تجارة السيارات القديمة المستهلكة ومبادلتها . وفى الشهر الماضى هدده المحلفون باقامة دعوى حقيقية ضده اذا لم يتوقف عن امضاء مبايعات صورية عند مزاولته لتجارته ، ولكننى لا أعتبر ذلك مما يؤخذ

عليه . فاخوتنا البيض يرتكبون اخطاءهم الآخرون ، عندما لا يكونون على علم بالقانون .

فقال الرجل الطويل وهو يقترب من الباب :

ـ صه يا ماكيرتن . انك تصـور هذه العمليات التجارية كما يتراءى لك . لقد اغتصبت فتاة بيضاء ، وعلى الزنوج أن يتحملوا تبعة ذلك .

وبدءوا يدفعون سام فى الممر .

ـ ولكن لا يجب ان يؤذى احد سـام برنسون المسكين ، لانه لا يعلم عن الأمر اكثر مما أعلم أنا . ولا يمكن أن يكون سام هو الذى ارتكب هذا العمل ! لقد كان محبوسا هنا فى السجن قبل أن تبدأ الاضطرابات بيومين !

فقال الرجل :

ـ عليك أن تهتم بتسليم ذلك الرجل الآخر اذا كنت تريد استعادة هذا ، يا ماكيرتن . واذا لم تفعل هذا ، فمن الأفضل لك أن توفر الـكلام حتى وقت الانتخابات . فقبل فرز أصوات الناخبين ستكون بحاجة شديدة الى الكلام .

وتراجع جميع الرجال فى الممر .

وصاح احدهم :

ـ لا يتحرك أحد منكم من مكانه لمدة خمس دقائق . ولا يحاول اى منكم اللحاق بنا . فسوف ينطلق رصاص كثير اذا حدث هذا !

وغاص جيف فى السرير وقد هـــده الانزعاج . وكان أول ما رآه هو هيكل الفتـاة الزنجية ممددا أمام عينيه . وخفض بصره وهو يصـوب نظرة فارغة الى الأرض الأسمنتية القذرة .

واتجهت كورا فى صمت الى الباب ذى القضبان الحديدية . وتساءلت :

ـ ماذا لديك لتقوله عن كل هذا ؟

وهز رأسه من جانب الى الآخر .

وقال بضعف :

ـ انني لم اشعر من قبل بمثل هذه التعاسة فى حياتى .

واتجه برت وجيم الى القضبان ونظرا اليه وهو يجلس مكتئبا على حافة السرير .

وقال يامرهما فى ضعف ، وهو يرفع بصره اليهما :

ـ احضر المفاتيح وافتح هذا الباب يابرت ! ولا تقف هكذا محملقا فى كالأحمق !

فقال برت وهو يتحرك بسرعة :

ـ اجل ياسيدى الشريف جيف .

وفتح قفل البـاب بمفتاح اخذه من حلقته هو . وفتح البـاب محدثا ضجيجا وصريرا صادرا من مفصلاته الأربع .

وجلست الفتاة .

وتساءلت بجراة :

ـ هل أنت متاكد انك انت الشريف الحقيقى ؟ لقد ظننت انك تشبه الشريف ماكيرتن ، ولكننى لم أدر كيف يحبس الشريف الحقيقى فى السجن .

وحملق جيف فيها .

وصاحت وهى تنكمش فى ركن السرير :

ـ اوه ، يا الهى !

ونهض جيف ولبس حذاءه وهبط على الأرض الأسمنتية الخشنة متجها ناحية الباب . ووقف جيم وبرت جانبا اثناء سيره بينهما فى تثاقل . وكان يبدو كرجل مر بمحنة ضخمة فى زمن قصير جدا .

وقال :

ـ برت ، من الذى جاء بهذه الفتاة الزنجية الى السجن ؟

ونظر برت الى جيم كوتش . وعلت الكآبة وجه جيم .

ـ كم مضى عليها هنا ؟

فاجاب جيم وهو يوجه بصره بعيدا :

ـ ما يقرب من يومين على ما اظن ياشريف جيف .

ـ من الذى وضعها هنا ؟

وكان مراى برت وجيم يدل على ان ثقلا كبيرا ينقض على ظهريهما .

ـ لا بد ان يخبرنى احدكما بذلك . ان المقاطعة تدفع لكما ايها النائبان مرتبا جيدا لكى تجيبا على اسئلتى عندما اوجهها اليكما . اليس كذلك ؟

ووجه اليه جيم نظرة ثابتة ثم اوما براسه . وقال برقة :

ـ أنا الذى حبستها ياشريف جيف .

فقال جيف آمرا :

ـ افرج عنها ، واسرع .

واتجه برت وجيم الى القفص واشـارا الى الفتـاة كى تنهض وترحل . وجرت الفتاة نحو الباب الخلفى بأسرع ما يمكنها .

وقال محملقا فيهما :

ـ لقد قلت لكما أيها النائبان أن تكفا عن هذه الأعمال .

ثم استدار وهو يسير متألما نحو الباب المفضى الى مكتبه فى الجزء الأمامى من المبنى . واستطرد :

ـ اذا ضبطت مرة اخرى اية فتـاة زنجية فى السجن فسوف ارميكما بالرصاص .

وكان قد سار خطوتين او ثلاثا عندما احس بكف آدمية تلطم وجهه . وكان قد نسى فى تلك اللحظة كل شىء عن كورا . وقبل ان يستطيع حماية نفسه ، شعر بوقع لطمتين آخريين تنهالان على وجهه أشد ايلاما من اللطمة السابقة ، ورفع ذراعيه يحمى بهما وجهه .

وانكمش برت وجيم فى ركن المكان .

وقالت كورا فى بطء :

ـ هناك أمور كثيرة تحتاج الى ايضاح يا جيفرسون ماكيرتن !

ورفعت يدها مرة أخرى وكأنها ستوجه اليه لطمة أخرى ، ولكنه خفض رأسه حتى تكون فى حماية ذراعيه . واستطردت قائلة :

ـ لم اك اظن أبدا انك ستلطخنى بالعار فى عقر دارى ؟ كيف يمكننى أن أسير فى شوارع اندروجونز رافعة الرأس بعد هذا الذى حدث ؟

ونظر اليها من بين ذراعيه المرفوعتين ، وكانت ترمقه فى غضب .
وقال متوسلا :

ـ يا حبيبتى ، اننى لم اك أعلم أنهـــا فى القفص الا عندما استيقظت منذ برهة . والى جانب ذلك فانت تعلمين اننى لم أمس أية فتاة ملونة منذ تلك المرة الأخيرة . يجب أن تصدقينى يا حبيبتى .

ـ اننى لا أصدق ما تقوله بعد ان رأيت بعينى هاتين فى وضوح كوضوح النهار !

وسار برت وجيم على أطراف أصابعهما دون احداث أية ضوضـــاء ، متجهين الى غرفة المكتب . واغلقا الباب بحرص .

ـ لماذا خدعتنى محاولا ان تجعلنى اصدق انك ذهبت لصيد السمك فى لوردز كريك ، ثم تسللت عائدا الى هنا مع فتاة زنجية ؟ اجب !

ـ القاضى بن الان ....
فقالت باحتقار :

ـ انك تحاول أن تلقى اللوم على ذلك الرجل العجوز !

ـ يا حبيبتى ، لقد قال لى ألا اذهب لصيد السمك لأنه قلق فيما يتعلق بالتماس مسز نارسيسا كالهون ، وقال اننى يجب ان اذهب لاعتقـــال ذلك الغلام الزنجى قبل ...

ـ انك احد الذين لن يوقعـــوا أبدا على ذلك الالتماس ياجيفرســون ماكيرتن ، لأنك لا تريد ان تبعد الفتيات الزنجيات عن البلاد !

فقال ناظرا اليها فى أمل ، وهو يتقدم نحوها عدة خطوات :

ـ يا حبيبتى ، ان الأمر ليس كذلك ! سأوقعه فى الحال ، لأثبت لك ! يا حبيبتى ، لقد كنت أخشى أن أفعل ما طلبه منى القاضى بن الان ، لخشيتى من الاقدام على مخاطرة سياسية اذا ما اظهرت وجهى فى فلورى برانش . لقد كنت أبذل جهدى لكى اجعل عملية الشنق هذه نظيفة سياسيا . وهذا هو ما جعلنى احبس نفسى هنا ، وكنت سأقول ...

وتوقف عن الحديث ، وحاول أن يرى مدى نجاحه . وحملقت فيـــه كورا .

ـ يا حبيبتى ، لقد فعلت ما فعلت ، وكنت ســـاقول للقاضى بن آلان وللناس ان بعض الرجال المجهولين الملثمين بالمناديل على وجوههم أخـذونى من سياتى وحبسونى كى لا اتدخل فيما يسعون اليه من اعتقـــال ذلك الفتى الزنجى . هذا هو الصدق الصراح يا حبيبتى .

وتوقف عن الحديث وهو يلهث .

وقالت كورا وهى تبتعد عنه :

ـ استمر !

ـ هذا كل ما فى الأمر يا حبيبتى . ولكن هذه الخطة لم تنجح بسبب ظهور هؤلاء الرجال الآخرين منذ برهة فافسدوا كل ما أعددته .

ـ اذا كان هذا جزءا من قصة الديك والثور ، فما هى بقية القصـــة ؟ يمكننى أن استمع اليها ، وأنا لا زلت هنا ، لأننى لن امكث تحت هذا السقف مدة أطول تكفى لسماعها بعد أن غادر هذا المكان .

وبدأ يقول فى يأس ، وهو يلتقط انفاسا سريعة ، حتى يكمل حديثه بأسرع ما يمكنه :

ـ لقد زحفت يا حبيبتى فى الظـلام ، وحبست نفسى فى ذلك القفص دون أن أعلم ان به أحدا . ولم أعلم بذلك الا منذ برهة عندما استيقظت .

وتوقف عن الحديث وهو يتلفت حوله بحثا عن برت وجيم ، ثم استأنف حديثه :

ـ لقد سمعت هذين النائبين يقولان انهما هما اللذان حبساها هنا . ولم اكن اعلم شيئا عن ذلك . لقد قلت لهما عدة مرات قبل ذلك أن يكفا عن عمل ذلك . وسوف ينالهما منى الكثير هذه المرة .

واستدارت كورا وسارت ، دون أن تتفوه بكلمة ، الى الباب راسا . وفتحته وعبرت الردهة ، وصعدت الدرج متصلبة العود .

وتبعها جيف وهو يجر قدميه فى كل خطوة يخطوها . وكانت راسه تتحرك من ناحية الى الأخرى أثناء سيره متجها الى الباب ، وكان يبدو كحيوان ضخم أشعث يجرونه ضد ارادته . وصعد الدرج خلف زوجته ، وهو يتساءل عن الزمن الذى سيستغرقه هذه المرة اقناعه لها بانه برىء من ارتكاب اى خطأ ، وكأنه جرو حديث الولادة .

الفصل السابع

كان الوقت ضحى ذلك اليوم الحار من أيام يوليو ، بعد ثلاث ساعات، عندما غادر جيف أخيرا غرفة النوم الواقعة فى الطابق الثانى من مبنى السجن وهبط الدرج . وكان يهبط ببطء ، وهو ينقل أقدامه الثقيلة واحدة بعد الأخرى فوق الدرج فينبعث منه صرير . وكان الصوت الصادر فى كل مرة يرتكز فيها ثقله على احدى الدرجات يشبه الصوت الذى يحدثه سقوط كيس من الحديد .

ولم يحدث أى صياح ، كما لم تقذف طوال الوقت أية قطع من الاثاث فى الدور العلوى ، وكل ما وصل الى الأسماع فى الدور السفلى كان همهمة لا تنقطع ، هى ذلك الصوت الصادر من شخص واحد يتكلم بغير انقطاع دون أن تتغير نبرات صوته . وكان برت ينتظر فى صبر داخل غرفة المكتب الواقعة تحت غرفة النوم ، الى أن دفعه الصوت الرتيب الى النوم . وقد ظل دون أن يتناول طعام افطاره حتى يكون على استعداد حينما يهبط جيف.

ووصل جيف الى أسفل الدرج وتحرك فى تثاقل عبر الردهة متجها نحو باب غرفة المكتب .

وصاح :

ـ برت !

وقفز برت من فوق مقعده وجرى الى الباب وقال بصوت يغلبه النعاس

ـ أجل يا سيدى الشريف جيف .

فقال فى اعياء وهو يتوقف ناظرا الى برت بطريقة غريبة :

ـ برت ، اننى أود لو أبذل روحى حتى أتمتع بذلك الادراك الشائع

المألوف الذى كان سيوجهنى ، عندما كنت شابا ، الى العمل فى الزراعـة · وانني لاتمنى لو كنت أعمل ، فى هذه اللحظة ، فى حرث الأرض بدلا من كل ما يمكن ان تحققه لى الحياة السياسية ·

فقال برت مبتعدا عن طريقه :

ـ اجل ، ياسيدى الشريف جيف ·

واندفع جيف بجسمه الضخم فى مدخل الغرفة الضيق ·

واسرع برت خلفه ·

وقال :

ـ يوجد هنا شخص ينتظرك ياشريف جيف ·

ونظـر جيف عبر الغرفة فالتقت عيناه رأسـا بعينى مسز نارسيسا كالهون · وكانت تقف بجوار النافذة ، ولكنها كانت قد بدأت تتحرك متجهة اليه · وحاول ان يستدير مبتعدا ، ولكنها لحقت به قبل أن يجد الفرصة للاتجاه الى الباب · وعندما نظر اليها مرة اخرى ، مدت ذراعها واشارت الى حزمة كبيرة من الأوراق موضوعة على مقعد ·

وتساءلت فى خوف وعيناه تدوران فى محجريهما لمرأى الالتماس :

ـ ماذا تريدين يا سيسى ؟

واتخذ طريقه الى مقعده مستندا الى المكتب حتى يضع جسمه الثقيل فى مكان يستريح فيه ·

وقالت وهى تبتسم له ابتسامة ذات معنى لا يخفى عليه :

ـ اننى أشعر بالسعادة لما بلغنى من أنك سلكت السلوك السليم يا شريف ماكيرتن ·

فتساءل مرتبكا :

ـ وماذا فعلت يا سيسى ؟

ـ ان تدع ارادة الناس تنفذ ، بطبيعة الحال ، ياشريف ماكيرتن · انني فخورة بك ·

وتساءل عن الكيفية التى سيتمكن بها من تجنب الأرض الزلقة التى تقوده اليها · وتقدمت سيسى وجلست على المقعد المجاور لمكتبه ·

وقال ناظرا اليها فى أمل :

ـ لقد قرأت لى زوجتى ذلك الكتاب الذى بعثته لى يا سيسى · لقد قرأته لى منذ ما يقرب من شهر ، على ما أعتقد · وكورا ····

وأمال رأسه الى احد الجانبين ، وهو يستمع الى الأصوات الخافتة الصادرة من الطابق الذى يعلوه · واستطرد قائلا :

ـ انه ذلك الكتاب الذى يتحدث عن المسيح عند عودته الى الأرض ، وحصوله على عمل كبائع للسيارات المستعملة ، انه ليس من شانى طبعا أن يعود المسيح اذا أراد ويفعل ذلك · ولكن اذا سألنى احد رأيى لقلت انه يوجد الكثير من السيارات المستعملة الخربة التى تجوب أرجاء البلاد · فاذا أراد المسيح ان يعود ويعمل فى تجارة السيارات فلماذا لا يبيع سيارات جديدة بدلا من تلك الخردة القديمة ؟ لقد خدعت أكبر خديعة فى حياتى عندما اشتريت مرة سيارة مستعملة من احد الأشخاص ، ولم يمض أسبوع حتى تحطم المحور قسمين ، ولكن كانت هذه مجرد البداية · فقد الرادياتور فى الطريق يوما ما أثناء قيادتى للسيارة · وتتابعت الخسائر واحدة بعد الأخرى على هذا المنوال · وهذه هى حالة سام برنسون الزنجى · ان سام طعم سهل يجتذب أية سيارة قديمة مستعملة · والجميع يعلمون المتاعب التى يعانيها · ولقد عمل سام طوال حياته بكل طاقته محاولا أن يجعل السيارات تسير فوق عجلاتها الأربع · وماذا كانت نهاية كل ذلك ؟ لا شيء · ان سام مثل ···

واستقام فى مقعده وهو يتلفت فى الحجرة · لقد نسى أمر سام برنسون ·

وتساءلت سيسى وهى تنظر اليه فى فضول :

ـ ما الأمر ؟

وقال :

ـ لا شىء . ليس الأمر هاما .

ونظر الى برت ، ولكنه ادرك ان برت لم تصله غالبا اية أنباء منذ ان اختطف سام . واستطرد قائلا :

ـ كنت فقط افكر فى ذلك الكتيب الذى بعثته لى يا سيسى .

وارهف سمعه لما يحدث فى الطابق العلوى محاولا أن يميز اية اصوات غير عادية تصدر عن كورا فى غرفة النوم . ولم يكن يساوره أى انزعاج من ناحيتها طالما كانت اصوات تحركاتها مألوفة . وكان يخشى أن يأتى الوقت الذى يسمع فيه صوت صندوق ثياب يغلق بعزم ، أو حقيبة تلقى بقوة على الأرض . وكان عند مغادرته لكورا فى الطابق العلوى قد اقتنع بأنه حصل منها على وعد بعدم هجره ، ولكن كان يوجد دائما خطر مراجعتها لنفسها وعدولها عن رأيها .

واستدعى برت اليه وهمس فى أذنه قائلا وهو يخفض صوته حتى لا يصل حديثه الى سيسى :

ـ اذهب لترى ان كنت تستطيع الحصول على اية أنباء عن سام . وعد بأسرع ما يمكنك . اننى لفى حالة اضطراب شديد لما يمكن أن يفعلوا به .

وغادر برت غرفة المكتب .

وقالت سيسى بصبر نافد :

ـ حسنا ...

وقال جيف وهو يستدير ناظرا راسا اليها :

ـ من الذى كتب القصة التى تدور حول عودة المسيح ومزاولته بيع السيارات المستعملة ؟. لست أنت . أليس كذلك ؟

ـ لا . اننى لم اكتبها يامستر ماكيرتن . اننى أبيع الكتب للناس .

ـ هل يؤمن الآخرون بأن المسيح قد عاد واخذ يبيع لهم سيارات مستعملة كما تقول القصة ؟

فقالت وهى تتحرك بقلق فى مقعدها :

ـ اننى لا أدافع عن الكتب الدينية ، ولكننى أدافع عن الانجيل .

ونظر جيف الى السقف بعصبية .

وقالت سيسى بسرعة :

ـ اننى لم أحضر الى هنا للحديث عن الكتب الدينية .

ـ ولماذا جئت ؟

فقالت وهى تقفز فوق قدميها وتحضر حزمة الأوراق الثقيلة وتضعها أمامه على المكتب :

ـ انه الالتماس .

فبدأ يقول :

ـ والآن يا سيسى ....

فقالت وهى تميل فوق المكتب ناحيته :

ـ انها أوقات عصيبة ، ياشريف ماكيرتن . وانت تعلم حال العالم اليوم . ويجب أن نفعل شيئا ازاء ذلك . ان علينا ان نرسل جميع الزنوج الى افريقيا التى جاءوا منها . انهم يتكاثرون بسرعة الى حد انه لن يوجد مكان لرجل ابيض يتنفس فيه قبل مضى وقت طويل . ان الزنوج ....

فقال بياس :

ـ والآن يا سيسى ، ان رجلا مثلى يشغل منصبا سياسيا لا يملك ان ...

فقالت وعيناها تلمعان ببريق حاد :

- لقد نشأت بين قوم ملونين . وكنت أعاملهم على الدوام معـــاملة حسنة . ولكن ذلك كان قبل ان يبدءوا فى شراء أناجيل المسيح الأســود البشعة ، التى تحتوى على صور تظهر المسيح فى هيئة رجل زنجى أسود ...

فقال معترضا :

- هذه ليست خطيئة يا سيسى . ويبدو لى ان للزنوج الحق فى ان يقولوا ان المسيح أسود ، بمثل ما لأخوتنا البيض الحق فى أن يقولوا انه أبيض . ولا سبيل هناك لاثبات أى من القولين ، أليس كذلك ؟

وازداد بريق عينيها أكثر من أى وقت مضى .

وقال جيف باصرار :

- حسنا ، قد يكون المسيح أسود .

فقالت بحزم :

- شريف ماكيرتن ، انك لن تفوز فى أية انتخابات أخرى فى مقاطعة جولى اذا ما اعتنقت هذا الرأى . واذا لم توقع هذا الالتماس وتساعد فى ارسال آخر زنجى فى هذه البلاد الى افريقيا التى جاءوا منها ...

فقال بأمل :

- ولكنهم لم ياتوا جميعا من افريقيــا ياسيسى . ان عددا كبيرا من الزنوج قد ولدوا هنا . وقد ولد هنا طفلان زنجيان فى الشهر الماضى وحده .

فقالت منفعلة :

- اعلم هذا ، ولكننى أتحدث عن جنس الزنوج . ان من واجبنا نحن البيض جميعا أن نتكاتف مع السناتور اشلى ديوكس ونرسل الجنس الزنجى الى افريقيا .

فتساءل غير مقتنع :

- لماذا ؟

فقالت سيسى بعناد :

- لمجرد ذلك !

وجلسا فى صمت وكل منهما يحملق فى الآخر .

وتساءل جيف عما جعل برت يتأخر الى هـذا الحـد . وكان يامل أن يحمل معه عند عودته أنباء عن الافراج عن سام دون أن يلحقه أذى . وكان يعلم أن سام يعرف كيف يتخذ طريقه عائدا ، ولكن جيف كان يامل أن يستطيع برت معرفة مكانه حتى يرسلوا سيارة تعود به . ولم يرتح لما خطر له من ان سام سوف يقطع فى عودته خمسة عشر او عشرين ميلا خلال المستنقعات والأرض الوعرة .

ووجه نظره الى السقف ، وهو يميل براسه على احد الجانبين وينصت فى انتباه . كان وقع اقدام كورا أخف وطأة مما كان عليه عندما سمعه للمرة الأخيرة . ومال الى الخلف فى مقعده وقد انتابه شعور بالارتياح .

والتقطت مسز نارسيسا كالهون حزمة الأوراق السميكة ووضعتها امامه بعنف . وأزالت غلاف الأوراق وهى تشير الى ما كتب على الصفحة الأولى .

وقال وهى تشير الى الصفحة باصبعها الطويلة :

- هذا ما يجدر بك أن توقعه يا شريف ماكيرتن .

فقال معترضا وهو ينظر فى الكلمات التى على الورق :

- والآن يا سيسى ...

الى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية :

نحن الموقعين على هـذا من المواطنين الملتزمين بالقـانون ، والنـاخبين المتمتعين بحق التصويت فى مقاطعة جولى ، بولاية جورجيا ، نتوجه اليكم بكل احترام ملتمسين منكم ، أيها الرئيس المبجل لبلادنا ، الولايات المتحـدة الأمريكية ، ان ترسل جميع أفراد الجنس الزنجى ، بما فى ذلك الخلاسيون وابناء الخلاسيين ، والملونون ، وكل الأشخاص الذين يجرى فى عروقهم اى قدر من الدم الزنجى ، الى بلاد افريقيا ، دون اى ابطاء .

وقرا جيف الالتماس قراءة سريعة فى المرة الأولى ، ثم اخذ ينظر بامعان الى كل كلمة الى ان تحقق من المعنى الذى تهدف اليه .

وقال مؤكدا ، وهو يهز راسه الأشعث من ناحية الى الأخرى :

ـ لا ياسيدى . اننى لاأحبذ القيام بعمل كهذا . قد يكون بعض الزنوج قد سلكوا فى الحياة سبلا وضيعة ، ولكن يوجد فى هذه البلاد من اخوتنا البيض من هم اكثر وضاعة بكثير من اى زنجى رايته من قبل . ولناخذ الرجل الملون سام برنسون مثلا على ذلك . انه وغد لا يحفل باى شىء ، فهو يتجر طوال الوقت فى السيارات القديمة المستعملة المستهلكة ، ولكنه ، فيما عدا ذلك ، شخص لطيف المعشر كاى شخص آخر من كل من الجنسين . واننى لأكره الا اجده هنا . وساشعر بالوحشة اذا لم يعد سام موجودا هنا .

وتراجعت نارسيسا الى الخلف ، وهى ترمق جيف باحتقار شديد . وتساءلت بصوت مرتفع وعيناها تومضان :

ـ انك لست محبا للزنوج ، اليس كذلك يا شريف ماكيرتن ؟

ونهض جيف باسرع ما يمكنه وهو يزيح الالتماس من على مكتبه . وسقطت حزمة الأوراق على الأرض .

واصطبغ وجهها بلون قرمزى من تاثير الغضب .

وقال بحزم :

ـ ان اى صفة تطلقينها على لن تحملنى على تغيير رايى فى الملونين .

وانحنت نارسيسا تجمع الأوراق فى عجلة . واتجهت الى الباب وهى تحملها تحت ذراعها .

وقال :

ـ اننى لا ابرئك من اثارة هذا اللغط حول الاغتصاب والشنق . فكيف تصادف انك انت التى علمت كل شىء عن هذا الأمر ؟ اننى اراهن على انك انت التى دفعت تلك الفتاة بارلو لأن تقول ما قالت !

وصلت نارسيسا الى الباب . وقالت مهددة :

ـ انتظر حتى يحين موعد الانتخابات ، يا شريف ماكيرتن . سوف ينقلب عليك الناخبون كما لو كنت انت نفسك زنجيا اسود . انك لن تكون شريفا لمقاطعة جولى مرة اخرى . سوف اذهب الى القاضى بن الان راسا لأحدثه بامرك . وسوف يدبر الأمر بحيث لا يدعك تتولى ابدا اى منصب سياسى طالما بقيت على قيد الحياة . فقط انتظر لترى !

وقبل أن يستطيع الوصول اليها ، كانت قد تحولت جارية الى الردهة وخرجت الى الفناء . وتبعها حتى المدخل وراقبها ترتقى سيارتها وتنطلق بها . وكان الواعظ فيلتز يجلس الى جوارها فى المقعد الأمامى .

وعاد جيف مخترقا الردهة ، وفتح الباب الحديدى الذى يفضى الى غرفة الأقفاص .

وقال مناديا ، وهو يسير فى المشى ناظرا الى كل قفص فى طريقه :

ـ « برت ! » وكان من المستبعد أن يجد سام برنسون جالسا فى احد الأقفاص ، ولكنه استمر يتطلع الى الأقفاص . وقال :

ـ « برت ! » تعال هنا يا برت !

وعندما وصل الى الباب الخلفى الذى كان لا يزال مفتوحا ، تطلع الى الطريق . وكان برت فى منتصف المسافة بين مبنى السجن وركن الطريق . وصاح وهو يخرج الى الممر الجانبى :

ـ « برت ! » .

ـ وجرى برت متجها اليه .

وقال فى قنوط :

ـ لم اعثر على أثر لسام يا شريف جيف . وهناك اشخاص كثيرون يعلمون بالامر ، ولكن احدا لا يدرى ماحدث له . لقد سالت كذلك كل شخص صادفته .

واستدار جيف مخترقا مبنى السجن وهو فى طريقه الى مكتبه • وتبعه برت كما يقتضيه واجبه •

وقال برت :

ـ يبدو ان معظم الذين تحدثت اليهم يعتقدون اننا يجب ان نفقد الأمل فى رؤية سام حيا مرة أخرى • وقال ان الجمع الذى تسوده حمى المطاردة لن يطلق سراحه حتى يجد سونى كلارك • وهم يعتقدون ان سونى قد فر •

وكان جرس التليفون يدق فى غرفة المكتب عندما وصلا اليها • وتناول برت السماعة وأمسك بها دون أن يستقر على راى منتظرا ان يخبره جيف بما يفعله •

وقال جيف فى اعياء :

ـ هيا ، أجب عليه • انه على الأرجح احد اولئك الذين يأمروننى بالذهاب الى فلورى برانش لأمنع الناس من ازعاج دوابهم •

وقال برت فى التليفون :

ـ هنا مكتب الشريف ماكيرتن •

ـ انا القاضى بن الان •

وقال جيف هامسا ، وهو يغلق عينيه بضع لحظات ظل خلالها ساكنا :

ـ أوه ، يا الهى !

ووضع برت السماعة على المكتب وتراجع الى الخلف فى هدوء • وتحرك جيف متجها الى المكتب •

وقال وهو يرغم نفسه على الحديث بلهجة مرحة :

ـ هالو ايها القاضى •

ـ ماكيرتن ، لماذا لم تذهب الى فلورى برانشي ليلة امس بعد ان غادرت منزلى ؟

ـ أيها القاضى ، لقد حدثت أمور كثيرة ليلة أمس ، وكلها خاطئة تماما • ولو كان يوجد وقت ، لاستطعت أن اوضحها لك • لقد كان يبدو كأن كل قوى العالم موجهة ضدى • اننى لم أبتل بكل تلك الاشياء اللعينة فى اى وقت من قبل •

وساد على التليفون صمت طويل •

وقال القاضى باعياء :

ـ كونويتودو مانيرى ا لوس ا أوبزرفاندا •

وتساءل جيف بسرعة :

ـ ما هذا أيها القاضى ؟

وساد صمت اطول قبل أن يعود القاضى الى الحديث مرة أخرى :

ـ لقد أصبح الموقف ، بعد الحصول على بضعة أنباء متفرقة من أنحاء المقاطعة ، مختلفا عن الليلة الماضية • ولم يحن بعد الوقت ، مع ذلك للتنبؤ بما سيحدث ، ولكن لعله من الأفضل أن تتوارى بضع ساعات • ففى ذلك الحين ستكون لدى فكرة افضل عن الموقف • لقد كان من الخير انك لم تذهب الى فلورى برانش ، ولكننى لا زلت لا ادرى لماذا لم تذهب رأسا الى هناك كما قلت لك •

ـ ليس من السهل توضيح ذلك فى التليفون أيها القاضى • ولكننى سعيد لأنه لم تكن هناك حاجة الى هناك • اننى أريد ان أبذل جهدى لكى اجعل عملية الشنق هذه نظيفة سياسيا ، أيها القاضى • لو أن مسز نارسيسا كالهون ظلت بعيدة ••

امكث فى مكانك يا ماكيرتن حتى يمكننى ان اعثر عليك عندما اريدك • ولا أريد ان أسمع انك ذهبت لصيد السمك ، أو شىء من هذا القبيل • الى اللقاء •

وقال جيف فى ضعف :

ـ الى اللقاء أيها القاضى • ووضع السماعة مكانها •

واستدار ناظرا الى برت الذى كان يقف بينه وبين النافذة . وكان وجه برت شاحبا مكتئبا .

وقال :

- برت ، اننى لا ادرى أحيانا ان كنت ذاهبا او قادما . اذا اردت نصيحة منى ، فابتعد عن السياسة ، ولا تدع شيئا يغريك بان تضع اسمك فى دفاتر الانتخابات ما دمت حيا . ولو كنت مكانك لاخترت لنفسى زوجة محبة ووجدت وسيلة هادئة لكسب القوت فى احدى المزارع الصغيرة فى مكان ما .

- لماذا ، يا شريف جيف ؟

- لأجل هذا يا برت ، لأجل هذا !

ونهض متألما ، وهو يدفع جانبى المقعد بعيدا عن عجيزته . وما ان استوى على قدميه ، حتى نظر الى السقف منصتا فى انتباه الى الأصوات الصادرة عن كورا . ولكن كل شىء كان هادئا ساكنا مثل الشفق فى أيام الصيف . وسرت فى الجو رائحة خفيفة صادرة من خضروات تسلق فوق النار . ودفع رأسه الى الخلف ، واتسعت فتحتا أنفه وتشمم الرائحة فى عمق . واتجه ناحية الباب .

وقال :

- اننى فى شدة القلق من أجل سام برنسون الملون . وسوف أقوم ، بمجرد أن أتناول بعض الطعام ، ببعض التحريات عنه ، فلا يمكننى ان أجلس ساكنا وادعه يصاب باذى .

وابتعد برت عن طريقه . وخرج من الباب واتجه الى اسفل الدرج الواقع فى الردهة . وانصت برهة قبل أن يبدأ صعود الدرج . وما ان ارتقى الدرجة الأولى حتى خرجت كورا من غرفة النوم واتجهت الى المطبخ . وصعد جيف الى اعلى ، وخياشيمه ترتجف لروائح البقول المسلوقة وخبز القمح المخبوز حديثا .

الفصل الثامن

عاد شيب باولو الى البيت ظهر ذلك اليوم ، وعيناه محمرتان كالدم لحاجته الى النوم . وقد غاب عن البيت بمفرده منذ المساء السابق . واصبحت لحيته السوداء ، التى كان قد مضى عليها دون حلاقة ثلاثة أيام عندما غادر البيت ، تشبه الأطراف الشوكية المدببة لعيدان الحنطة . وكان شيب رجلا ضئيل الجسم نحيلا يبلغ طوله خمسة أقدام ، وكان وجهه يبدو مرعبا اذا ما قورن بهيكله الذى لا يستلفت النظر .

وقد تحدث الرجال الستة أو الثمانية الواقفون تحت الشجرة التى تلقى ظلا عريضا فى الفناء الأمامى ، بحذر/ عندما مر بهم . وكان الآخرون جميعا قد رحلوا ، اغلبهم للبحث عن الزنجى ، والباقون لتناول طعام الغذاء . وقد أثارت عدم عودة شيب فى مدى معقول من الزمن شعورا بالقلق والغضب بين الحشد لهذا التأخير . وكان قد اخبرهم ألا يقدموا على شىء حتى يعود ، وتوقع الرجال عودته عند شروق الشمس . وكان جمع كبير من الرجال قد ذهب الى مستنقع اوكونى ، فى حين اتجهت جماعة أصغر عددا فى الاتجاه المضاد نحو ايرنشو ريدج . واستولى على من ظلوا فى المنزل شعور بالاشمئزاز من الأساليب البطيئة التى لاتزال تتبع بعد مرور ثمانى عشرة ساعة على انتشار النبأ فى المقاطعة .

وكان شيب يأمل فى أن يجد سونى بمفرده . كان يريد ان يقتله هو ، فقد كان يريد أن يحس بنشوة عقد الحبل حول عنق الفتى الزنجى وجره خلف عربته فى أنحاء المقاطعة قبل ان يسلمه الى الحشد . ولكنه لم يجد طوال هذا الوقت أى أثر لسونى .

وراقب الرجال الواقفون تحت الشجرة شيب وهو يعبر الفناء .

وتحدث اليه واحد أو اثنان منهم ، ولكنه لم يكلف نفسه حتى عناء ادارة راسه ليرد عليهما . وادركوا من سلوكه انه لم يعثر على سونى ، وانه غير متمالك شعوره بصورة خطيرة .

وبعد أن ارتقى شيب الدرج الأمامى وعبر المدخل ، قذف قبعته فوق أرض الردهة وسار متجها الى غرفة المائدة .

وتوقف فجأة عند الباب . فقد كان هناك رجل غريب يجلس الى المائدة يتناول طعام الغـــذاء مع كيتى . ودهش شيب لوجود غريب فى بيته ، رغم انه كلما اطال النظر الى الرجل ازداد يقينا انه رآه من قبل . وكانت للغريب لحية بيضاء طويلة تكاد تصل حتى الطرف العلوى لسرواله . وكان صدر قميصه مغطى تماما بالشعر الكثيف .

ورفع الرجـل العجوز يده المرتجفة بملعقة مليئة باللوبيا ، وقبـل أن يضعها فى فمه أبعد أطراف لحيته بعناية من حول فمه .

وتساءل شيب متقدما ببطء فى الغرفة ، وهو يمعن النظر فى الرجل :

ـ من هذا ؟ من هو يا كيتى ؟

فقالت :

ـ انه جدى هاريس يا بابا ، انك لم تنسه ، أليس كذلك ؟

فقال ، وعيناه غير مصوبتين الى أى منهما بالتحديد :

ـ أعتقد اننى أخبرتك أن تبتعد عن هنا .

واتجه شيب الى مقعده على رأس المائدة وعيناه ملتهبتان .

وتساءل :

ـ من أين جاء ؟

ووقف خلف المقعد لحظات طويلة قبل أن يجلس ، واستطرد قائلا :

ـ ماذا يريد ؟

وأنزل الرجل العجوز ملعقته ، ونظر الى شيب من فوق اطراف منظاره.

وكانت لحيته قد نمت بصورة غريبة ، فجعلته يبدو وكأنه يبتسم طول الوقت . فقد نبت الشعر الثلجى الأبيض على جانبى وجهه فى خصـلات تمتد اسفل عظام الخدين حتى خصره فى تجعدات تشبه تلك التى تغطى المناديل الورقية البيضاء المستخدمة فوق الموائد .

وقال محدثا شيب للمرة الأولى :

ـ كيف حالك يابنى ؟

ولا يمكن لمن ينظر اليه أن يتبين ان كان يبتسم حقيقة أو ان اللحية هى التى تجعله يبدو وكأنه يبتسم . وثار غضب شيب لهذه الابتسامة الموجهة اليه .

وأزاح شيب مقعده وجلس دون أن يجيب . وملأ طبقه باللوبيا وبدأ يقذف بها فى فمه . وانتابه شعور بالحنق وهو يمـــد يده عبر المائدة بالشوكة ليتناول قطعة من خبز القمح فوجده قد نفد بأكمله .

وأزاح الجد هاريس ، الذى بدا لشيب سعيدا بصورة لا تليق بالظروف التى يمر بها ، اطراف لحيته ، وملأ فمه مرة أخرى باللوبيا .

وقالت كيتى :

ـ لقد جاء الجد هاريس الى هنا مشيا على قدميه كل تلك المسافة من مقاطعة سميث ، عندما سمع بما حدث ليلة أمس .

ـ ما الذى سمع انه حدث ؟

ـ ماذا ، يا بابا ، الاغتصاب طبعا .

فقال مؤكدا :

ـ اننى لا أصدق ان أى اغتصاب حدث فى الليلة الماضية ، أو فى أى وقت آخر . انك أنت وتلك المرأة التى تبيع الكتب الدينية قد لفقتما تلك القصة . اننى لم أجد أى أثر لذلك الزنجى الذى تقولين انه فعـل هذا . انها كلها كذبة كبيرة .

وحبست كيتى أنفاسها ، وهى تنظر الى الرجلين فى انزعاج • ولم تدر ماذا تقول •

وقال الجد هاريس :

ـ اننى لم أر كيتى منذ ماتت أمها • وعندما وصل الى النبأ جئت الى هنا على الفور • فقد أردت أن أرى كيتى مرة أخرى قبل أن أذهب •

وتساءل شيب وهو ينظر اليه :

ـ تذهب الى أين ؟

فقال الجد هاريس :

ـ اذهب لأموت • لقد تقدمت بى السن •

وتأمله شيب دون اهتمام وهو يقلب شفتيه ، وقال :

ـ لقد أصبحت عجوزا الى حد لا يسمح لك بالتجول فى البلاد بهذه الصورة • ان الأشخاص المتقدمين فى السن مثلك يجدر بهم أن يلزموا بيوتهم ، فهى المكان الذى يليق بهم •

وكان غضبه قد تزايد أثناء الحديث : واستطرد :

ـ لقد أخبرتك مرة من قبل اننى لا أريد أن أراك هنا مرة أخرى •

فقال الرجل :

ـ اننى لا أريد أن أكون عبئا عليك يابنى • وسوف ابدأ العودة الى مقاطعة سميث قبل أن يمضى وقت طويل • ولم أكن أريد الا رؤية ابنة آنى بعض الوقت • فانا على ثقة من أن فرصة أخرى لن تتاح لى لرؤيتها •

وقال شيب متحولا الى طعامه مخفضا راسه فوق طبقه الملىء باللوبيا :

ـ كن حريصا اذن على ألا تنسى أن تعود •

ونظر الجد هاريس الى كيتى وشيب ، ولكن لم يكن فى وسع احد أن يعلم ان كان غاضبا أو انه يبتسم من تحت لحيته • وكانت خصلات الشعر فوق خديه تبدو كأطواق من الأشواك تهتز فى مجرى النسيم • وفى

المرة الأخيرة التى جاء فيها الى هنا ، عندما أمره شيب أن يبتعد عن هذا المكان ، كان قد قطع على قدميه المسافة بأكملها من مقاطعة سميث ليشهد جنازة ابنته • وقد هدد شيب بابلاغ الشريف ، اذا لم يستخرج جسد آنى من البئر ويقيم لها جنازة لائقة •• وقد طارده شيب خارج المكان بعد خمس دقائق من انتهاء الجنازة ، وأمره ألا يضع قدمه فى المنزل مرة أخرى •

وقال الجد هاريس وهو يبتسم ويمضغ الطعام :

ـ اننى لا أريد ان أسبب لأحد أية متاعب •

وأبعد أطراف لحيته وهو يتناول على التوالى ثلاث ملاعق من اللوبيا :

ـ سأغادر المكان وأبدأ العودة الى بيتى بمجرد ان أرى كيتى بعض الوقت • ولا أعتقد أن من حقى أن أتدخل يا بنى ، ولكننى أتعشم ألا يحدث ما يخجل فى مشكلة كيتى هذه •

واستقام شيب فى مقعده وهو يبعد الملعقة عن الطبق وتساءل :

ـ ماذا بحق الجحيم تعنى بهذا القول ؟

ـ يا بنى ، من الأفضل كثيرا أن تدع شريف المقاطعة يتولى أمر هذه المشكلة ، فاننى لا أحب أن تكون لابنة آنى علاقة بعملية شنق مخجلة • وأنا أعرف أنه لو كانت آنى هنا لقالت نفس الشىء •

فقال شيب :

ـ ابتعد أنت عن هذا الأمر • اننى لا أسمح لأحد أن يتدخل فى شئونى ، ويقول لى ان فى استطاعة أحد الزنوج أن يغتصب نساء بيتى ثم يفر •

وأزاح شيب طبقه ، ثم هب واقفا فى ضجيج •

وقال الجد هاريس فى هدوء :

ـ والآن يا بنى •••

ووقف شيب فى منتصف المسافة الموصلة الى الباب وصاح فى كيتى :

ـ أين تلك المرأة كالهون ؟

- لقد غادرت البيت عقب تناول طعام الافطار مباشرة يا بابا . لقد قالت ان لديها بعض الأعمال التى تريد ان تنجزها فى احد الأماكن .

واستدار محملقا فى الجد هاريس . وكان الرجل العجوز ينظف لحيته البيضاء الحريرية ويمشطها بمنديله . وصاح فيه :

- لا تتدخل فى شئونى . اننى لا اريد أن اسمع اى حديث آخر عن ابلاغ الشريف بهذا الأمر . واذا جاء جيف ماكيرتن يدس أنفه فى شئونى ، فسوف أجعله يتمنى لو أنه لم ير فى حياته صندوق الانتخابات. سأطلق النار على ماكيرتن بمثل السرعة التى سأطلق بها النار على ذلك الزنجى الذى أبحث عنه .

وتحول عن الجد هاريس ، ووجه الى ابنته نظرة تهديد :

- اننى لا أريدك أن تقفى بجانبه . أنا أبوك ، وعليك أن تفعلى ما أقوله لك .

وأومأت كيتى برأسها بسرعة ، وهى تبتعد عنه .

وقبل أن تتمكن من الابتعاد عنه ، كان قد قبض عليها بيده اليسرى وصفعها باليد اليمنى . وأصابتها اللطمة فى جانب رأسها ودفعتها لترتطم بالحائط .

ونظر اليها وهى مكومة عند قدميه برهة من الزمن ثم استدار وغادر البيت .

وكانت قد وصلت الى الفناء منذ بضع دقائق سيارتان محملتان بالرجال. وكانت هناك سيارة أخرى يمكن مشاهدتها وهى تدرج ، على بعد ربع ميل، فوق الطريق الوعر .

ووقف شيب فى الفناء ينظر عبر الحقول المغطاة بالحشائش . وكان قطنه يعانى من الذبول والعطش . وفى مدى بضعة أيام أخرى ، سيكون محصوله قد هلك ولا يمكنه انقاذه . وكان كل شخص تقريبا فى هذا الجزء من البلاد قد فرغ من تنقية الأرض من الحشائش . وتساءل شيب عما

سيقوله بوب واطسون ويفعله عندما يرى محصول احد مستأجريه فى هذه الحالة .

وجاء الى الفناء عدد كبير من الرجال ، أثناء وقوفه ناظرا الى الحشائش فى الحقل .

وقال أحد الرجال :

- كيف حالك يا شيب ؟.

فاجاب دون أن ينظر اليهم :

- كيف حالك .

وساد الصمت برهة . وكانت شمس الظهيرة تلهب الأرض دون رحمة. ووجه جميع الرجال أنظارهم الى القطن الذى تخنقه الحشائش دون أن يدلوا باى تعليق .

ووصلت الى الفناء السيارة التى كانت قادمة فى الزقاق ناحية البيت. وهبط منها عدة رجال يحملون البنادق والمسدسات .

وقال رجل يقف بجوار شيب وهو يلكزه بكوعه :

- لقد كنا نبحث الأمر ياشيب ، ونريد أن نوجه اليك سؤالا .

واستدار شيب على عقبيه وقال غاضبا :

- ماذا ؟

- انك لن تخبر الشريف بشىء عن ذلك ، أليس كذلك يا شيب ؟

فصاح محملقا فى الوجوه التى حوله :

- يا للجحيم ، لا !

واختفى التوتر من وجوه الرجال .

وقال أحدهم وهو يدفع بندقيته تحت ذراعه :

- ماذا ننتظر اذن ؟ لو أن زنجيا اغتصب احدى نساء بيتى ، لكنت

أطلقت النار على كل واحد منهم فى البلاد بأسرها حتى أصل الى الشخص الذى ارتكب الحادث .

وقال رجل آخر :

ـ سوف يأتى الشريف الى هنا ومعه الكلاب البوليسية ليقبض على ذلك الزنجى تحت أنوفنا ، اذا لم نتحرك ونقبض عليه أولا .

وقال شيب :

ـ لن ينال أى شريف ذلك الزنجى طالما كنت حيا .

ـ هكذا يكون الكلام يا شيب !

ودفع شيب الرجال بعيدا عن طريقه ، واتجه الى الطريق حيث كانت تقف السيارات .

وقال أحد الرجال وهو يجرى ليلحق به :

ـ يوجد جمع كبير من الرجال هناك فى مستنقع أوكونى . وهناك جمع كبير الى حد ما فى تلك الغابات الواقعة فى طرف ايرنشوريدج . فماذا ترى عمله يا شيب ؟ اذ لا يمكن أن يكون ذلك الزنجى فى أكثر من مكان واحد فى نفس الوقت . فأين تعتقد انه ذهب ؟

ولم يجب شيب .

ـ لقد أدرك التعب الكثيرين وهم فى انتظار عودتك هذا الصباح . وتفرقوا جماعات ذهبت للبحث . وقد مكثت هنا فى انتظارك يا شيب لأننى لا أومن بالشجار فى وقت كهذا .

وخرجت كيتى الى مدخل البيت تنظر الى الرجال المتفرقين فى الفناء . وذهبت الى العمود المنتصب بجوار الدرج واعتمدت عليه . واستدار اثنان أو ثلاثة من الرجال ومضوا يتأملونها . وابتسمت لهم .

وغادر رجل كان يجلس وحده فى احدى السيارات مكانه وعبر الفناء ليلتقى بشيب . وكان هو النجار كلينت هاف من اندروجونز .

وقال أحد الأشخاص :

ـ قف يا كلينت . لا حق لك أنت وشيب فى أن تصطدما ببعضكما فى وقت كهذا .. ان فتاة بيضاء قد ....

ودفعه كلينت جانبا واتجه نحو شيب . لقد اعتاد هو وشيب أن يتعاركا ويتقاتلا منذ أن بلغا من العمر ما يسمح لهما بحمل السكاكين . وكانت آخر مرة تعاركا فيها فى الحفل السنوى الذى يقيمه الشريف ويقدم فيه الشواء ، والذى أقيم فى الصيف الماضى . ويحتفظ شيب على صدره بندبة طولها ثلاث بوصات تذكره بذلك العراك .

وواجها بعضهما البعض محتفظين بمسافة بينهما .

وقال كلينت :

ـ ماذا تعنى بمحاولتك شل كل هذا الجمع الذى يريد شنق الزنجى ؟ انك تتصرف كما لو كنت تريد أن تترأسهم ، أليس كذلك ؟

انتزع كلينت سكينة من جيبه ، وأخرج حدها من غمده .

وقال أحد الأشخاص وهو يخطو بينهما :

ـ والآن ، انتظر لحظة يا كلينت . ليست هذه هى الوسيلة التى نقبض بها على أحد الزنوج . والى جانب ذلك ، فان أمام كل شخص الفرصة لاعتقاله ، على أية حال .

وازاح كلينت الرجل من طريقه . ولم يقل شيب شيئا حتى ذلك الحين ، ولكنه وضع يده فى جيبه وبدأ يخرج سكينه .

وقال كلينت :

ـ لا بد انك أخفيت ذلك الزنجى فى مكان ما لتسلمه لجيف ماكيرتن .

واستدار ملقيا على الرجال الواقفين حوله نظرة سريعة واستأنف حديثه قائلا :

– ان اى رجل يسلم للشريف زنجيا ارتكب حادث اغتصاب ليس بافضل من الزنجى نفسه .

واخرج شيب حد السكين من غمده بحركة سريعة من أصابعه .

وحاول الرجال أن يفرقوا بين كلينت وشيب ، ولكنهما كليهما قاوما كل الجهود التى بذلت للتفريق بينهما . وكانا يواجهان بعضهما البعض على مسافة تقل عن خمس خطوات .

واحنى شيب قامته قليلا ، وهو يقبض على السكين بيده . والقى كلينت بقبعته على الأرض ، وتقدم نحو شيب فى اتجاه دائرى .

واحتشد كل الرجال الواقفين فى الفناء حولهما على أقرب مسافة ممكنة ، وهم يعلمون أنه لا فائدة من محاولة ايقافهما حتى يتقاتلا فترة من الزمن . وكان الجميع مشغولين فى مشاهدة الرجلين الى حد أن احدا لم يلحظ الجد هاريس وهو يشق لنفسه طريقا وسط دائرة الرجال ويجرى الى منتصف الحلقة . وكان الوقت قد فات لعمل اى شىء ، لأنه فى اللحظة التى وصل فيها هناك ، كان كل من كلينت وشيب قد اندفع الى الأمام . وادى الاندفاع الى القاء الجد هاريس على الأرض مصطدما بها .

وتراجع كلينت أولا ، ثم شيب . ولم يدريا بما حدث ، ولكن الجد هاريس لم يتحرك منذ اصطدامه بالأرض . وتجمع الرجال حول شيب وكلينت مفرقين بينهما . وعندما أصبح كل منهما فى طرف من الفناء بعيدا عن الآخر، قام بعض الآخرين برفع الجد هاريس من فوق الارض وحملوه الى مدخل البيت ، ومددوه على ظهره .

وقالت كيتى بانفعال وهى تنحنى عليه :

– ماذا حدث لجدى هاريس ؟

وقال أحد الأشخاص :

– لقد اندفع وسط المشاجرة . واعتقد أنه كان يحاول وقفها . ليس به اى نزيف ظاهر . وسوف يستعيد وعيه بعد برهة ويصبح على ما يرام .

وعلى أية حال ، لا يوجد ما يدعو الرجال المتقدمين فى السن مثله الى الاندفاع فى اماكن كهذه . ولو ان سكين احدهما نالته لما كان على قيد الحياة الآن .

وكان كل من شيب وكلينت يصيح ، ولكنهما كانا قد أبعدا عن بعضهما البعض بدرجة تكفى لمنع أى منهما من القفز على الآخر . وكان الرجال يتحدثون اليهما محاولين اقناعهما بالتخلى عن سكينيهما بقية ذلك اليوم .

وقالت كيتى بانفعال :

– لقد مر بى جدى هاريس ولكننى لم أكن أعلم ماذا سيفعل . واعتقد اننى كنت ساوقفه .

وابعدها احد الأشخاص بينما حمل الرجل العجوز من المدخل . وأدخلوه الى المنزل وارقدوه على الفراش . وظلت كيتى معه بضع دقائق ، ولكنها كانت تريد أن ترى الرجال فى الفناء . فعادت الى المدخل .

وتخلص كلينت من الرجال الذين كانوا يحاولون أن يمسكوا به واتجه الى سيارته . وصعد اليها وانطلق بها بمفرده .

وسار الجميع عبر الفناء ، وهم يتبعون شيب حتى المدخل . وجلس على الدرج ، وهو يغمغم لنفسه .

وقال شخص ما :

– انه لعار أن يحدث هذا للرجل العجوز يا شيب . ولكننى أعتقد انه سيعود الى وعيه بعد برهة . ومع ذلك فقد كان يجب أن يكون لديه من الادراك ما يمنعه من الاندفاع وسط قتال كهذا .

ولم يجب شيب .

– ومن هو هذا الشخص العجوز ، على أية حال ؟

وهز شيب رأسه .

– لقد كان هذا حادثا على أية حال ، وكان من الممكن ان يقع لأى شخص يتدخل بينك وبين كلينت هاف .

ونهض شيب ، ونظر حوله برهة ، واتجه راسا الى ركن المدخل حيث ترك بندقيته عندما عاد الى المنزل .

ولم يقل شيئا وهو يسرع الى سيارته . وعلم الرجال ان المطاردة قد بدات .

الفصل التاسع

كانت كيتى بارلو ، بوجهها المتضرج وانفاسها اللاهثة ، غاضبة الى حد انها مضت تبصق ..

وازاحت شعرها من فوق عينيها ودفعته الى الخلف بعيدا عن وجهها ، وهى تضم شفتيها بقوة الى اسنانها . وتمنت لو انها تحولت الى رجل حتى تبصق أفضل من ذلك .

واخذت تفكر فى جميع الوسائل المختلفة التى يمكنها أن تبصق بها لو كانت رجلا . ستبصق من بين أسنانها ، ومن فوق كتفها . وفى الهواء بشكل مباشر . بل انها سوف تبصق على وجه ليروى لوجيت .

ومضى ليروى ، الذى كان يحتل مكانه فوق مقعد السائق فى سيارة نقل الأخشاب كانه شيطان فوق عرشه ، مضى يبتسم لها فى سخرية . وبينما هى تحملق فيه بقسوة ، ضاربة الأرض بأحد قدميها ثم بالقدم الأخرى ، كان ليروى يرفع يده ببطء ويزيح منظاره فوق جبهته .

وكانت الدوائر البيضاء حول عينيه تنظر اليها بسخرية شبيهة بابتسامة الازدراء على وجهه . وكان يستعمل المنظار ليحمى عينيه من الغبار أثناء نقله كتل الخشب من ايرنشوريدج الى ورشة نشر الأخشاب فى اراضى أوكونى المنخفضة . وبدا ليروى بعد أن رفع المنظار فوق جبهته وكانه يهزأ بها بنظرات مصوبة من أربع عيون بدلا من اثنتين فقط .

وصاحت فيه وهى تضرب أرض الطريق بقدمها :

– اننى أبصق كالمجانين يا ليروى لوجيت !

وضحك منها وهو يرمى براسه الى الخلف ويقبض على عجلة القيادة بكلتى يديه ·

ـ اننى لم ابصق بمثل هذا الجنون فى حيـــاتى من قبل ، يا ليروى لوجيت !

ولم تر فيه فى ذلك الحين أى شبه بالرجل الذى التقى بها فوق جسر فلورى برانش منذ اسبوع فقط ، وأعطاها كيسا كبيرا من الحلوى التى لها شذى البرتقال ، وكان قد اشتراه خصيصا لها من اندروجونز ·

ودفعت كيتى قدمها الى الأمام فى حــرص ، وهى تضعها فوق ســلم سيارة النقـــل · وبعدئذ مالت الى الأمام لتكون اقرب ما يمكن من ليروى ، وبصقت على وجهه بكل قوتها ·

ومرت دقيقة بعد اخرى وهما يحملقان فى عيون بعضهما البعض ، بيد انه خيل لكيتى أن كل شىء فى العالم توقف عن الحركة · وقد تولتهـــا الدهشة لما اقدمت عليه ، بمثل ما دهش ليروى لما حدث · انها لم تبصق فى وجه احد فى حياتها من قبل ، بل ان فـــكرة كهذه لم تدر بخلدها · وعندما ادركت ما اقدمت عليه ارتجف جسدها ·

وبدا يمسح وجهه ببطء بكمى قميصه ، فيمر بذراعيه الواحـــد تلو الآخر فوق وجهه ، بينما تصاعدت الى راسه موجة من الدماء احتقن بها جلده واصطبغ ، حتى جذور الشعر ، بلون قرمزى ·

وبدرت من كيتى حركة يبدو منها كانها ستبصق عليه مرة أخرى · ثم سمعته يصيح فيها وهو يقفز من السيارة :

ـ ايتها القطة الجهنمية ! أيتها القطة الجهنمية ذات الشعر الأسود ! انت !

وتراجعت الى جانب الطريق ، وهى تبصق عليه فى كل خطوة تخطوها·

وصاحت فى غضب :

ـ لقد أخبرتك اننى غاضبة يا ليروى لوجيت ! ليس من حق أى انسان

ان يتحدث الى بمثل ما فعلت أنت منذ برهة ! اننى لا أحتمل هذا ! أتسمعنى يا ليروى لوجيت !

واستمرت تتراجع ببطء ، وهى لا تزال تبصق فى كل خطوة تخطوها تقريبا ·

واخذ ليروى يحملق فيها بغضب مستعر · وكان وجهه المصطبغ باللون القرمزى مغطى بالعرق الذى يبدو وكانه يتصبب من كل فتحة فى جلده ·

وقال من بين أسنانه المتضاغطة :

ـ قد تحسبين نفسك غاضبة ، ولكن غضبك لا يقاس بما انا عليه !

وقالت مهددة :

ـ لو فعلت بى شيئا يا ليروى فسوف أخبر بابا ·

وتراجعت حماية لنفسها واستطردت :

ـ سوف اخبره أيضا بما فعلته بى عند الجسر · انتظر فقط لترى ان كنت لن افعل هذا !

فقال مستهزئا :

ـ اننىلا أخشاه أو اخشى اى شخص آخر ·

واستمر يتقدم منها خطوة بعد أخرى ·

وصاحت فى يأس :

ـ سوف اخبر عنك كل انسان فى العالم ! ساخبر الشريف ماكيرتن والقاضى بن الان ومسز نارسيسا كالهون !

وصاح فيها :

ـ لا توجد أنثى تبصق فى وجهى ثم تفر بما فعلت !

وانحنت الى الأرض فى خفة لم تكن تدرى انها قادرة عليها ثم ملأت

يدها بالتراب . وكان ترابا أصفر ناعما ، ووجدت صعوبة فى منعـــه من التسرب من بين أصابعها . وظلت قابضة عليه بكل قوتها .

وطوح ليروى ذراعيه فى جنبيه مهددا . واشتدت قبضة كيتى على التراب .

وقال وهو يصوب اليها نظرة ثابتة :

— ان أحدا لم يغتصبك . بحق الجحيم لا ! انك تتباهين بهذا ! ولعلك انقلبت ضـــد ذلك الفتى الزنجى لأنه رفض ان يضـــاجعك . ان أحدا لم يغتصبك يا كيتى بارلو .

وبصقت فى وجهه بكل قوتها .

وصاحت فيه :

— اغلق فمك ، يا ليروى لوجيت !

— يجب ان ينالك العقاب لأنك كنت كاذبة . ان الأناث من أمثالك يجب أن يضربن حتى يصبحن عاجزات عن رؤية ما أمامهن . لقد اعتزمت ...

ورفع ذراعه أمام وجهه يمسح العرق بكم قميصه .

وقالت ، وهى ترتجف محاولة اخفاء رعبها :

— انك لست شيئا حتى اخاف منك يا ليروى لوجيت . انك لن تفزعنى بهذا الكلام .

فقال متجها نحوها :

— من الأفضل لك ان تفزعى ، لأننى سانتزع الحياة من بين ضلوعك .

وانتظرت مكانها فى انتباه وعيناها مثبتتان على يدى ليروى . واقترب منها ، وعندما أصبح على مسافة اربعة أقدام أو خمسة فقط ، وعندما لم تجرؤ على الانتظار مدة أطول من ذلك ، ألقت بما فى يدها من تراب فى عينيه ، ثم استدارت جارية كثعلب صغير بين الحشائش الكثيفة التى تنمو بجانب الطريق .

وكانت وهى تجرى تسمعه يلفيها ، ولكنها لم تجرؤ على النظر حتى احست أنها أصبحت على مسافة كافية تحميها منه . وعندما رأته يقف فى الطريق ، توقفت واستدارت . وكان قد توقف فى مكانه عندما أعماه التراب، وأخذ يسبها بأعلى صوته .

وارتجفت كيتى وهى تنظر اليه ، وكانت تعلم أنه بلغ حدا من الغضب سوف يجعله يؤذيها اذا ما وضع يده عليها ، وكان على درجة من القـوة تمكنه من أن يفعل بها أى شىء اذا ما وقعت فى قبضته . وكانت سعيدة لأنها فكرت فى تناول قبضة التراب والقائها فى عينيه .

فقد كان من الممكن أن يقتلها فى الحال فى الطريق قبل أن ينهى حديثه . وبينما هى تفكر فى هذا الأمر ، أخذت تسير ببطء متراجعـة الى الخلف ، حتى أصبحت المسافة بينهما كبيرة الى حد كاف .

وبينما هى تراقبه أثناء محاولته ازالة التراب من عينيه ، بدأت تعود الى ذهنها الأشياء التى قالهـــا لها من قبل ، وجعلتها تبلغ هذا الحد من الغضب ، وتذكرها بموقفه المتسم بالازدراء . ورنت الكلمات التى قالها لها فى أذنيها بجنون .

كان قد قال لها : « لماذا لا تتخلين عن هذه الحياة الفاجرة ، وتحصلين لنفسك على رجل يؤويك ، يا كيتى ؟ » بل لقد تذكرت النظرة التى ارتسمت على وجهه وهو يقول لها هذا . كان على وجهه تعبير يدل على الاهتمـــام واللهفة ، ولكنه يتسم بالاحتقار كذلك . وقال لها :

— اننى لا أستطيع ان أستمر فى علاقتى بك أكثر من ذلك . وسوف أكون أحمق اذا ما شربت ماء من كل اناء أجده ملقى فى جانب الطـــريق . وهذا هو ما أعنيه . انك لست أكثر من فاجرة تعمل فى حقول القطن .

وتصاعد الدم الى وجهها وهى تستعيد كلماته .

— يجب أن تخجلى من نفسك حين تجعلين الناس يشنقون فتى زنجيا صغيرا براءته واضحة كضوء النهار . ولو ظننت انك تقولين الصدق ، لكنت هناك اتعقبه مع بقية الرجال . ولو ان فيما قلته شيئا من الصدق لــكان يستحق الشنق ولكنك لا ترينني أفعل ذلك ، أليس كذلك ؟

وكانت قد ظلت فترة طويلة من الزمن تعتقد انها ستتزوج ليروى • وكانا قدتحدثا منذ بضعة اسابيع فقط عن استئجار منزل خالفى ايرنشورديدج وابتياع بعض الأثاث لغرفتى النوم والمائدة على أن يدفع ثمنه على دفعات اسبوعية لأحد المتاجر فى اندروجونز • وكانا يخشيان الا يوافق أبوها على زواجها لصغر سنها ، ولكنهما دبرا عدة خطط للفرار والزواج • وكانت تحتفظ فى تلك اللحظة فى البيت برداء تعده سرا ، وقد أخفته عن والدها فى صندوق الثياب الموضوع أسفل السرير • وقد أكملت نصف الثوب فقط ، ولكنها كانت تحتفظ فى قاع الصندوق بست مناشف قامت بتطريزها • واحتفظت فى احد اركان الصندوق ، داخل قطعة من القماش ، بالنقود التى ادخرتها لتشترى بها قماش الموسلين الذى ستصنع منه غطاء سرير الزفاف عندما تذهب الى المتجر • وملأت الدموع عينيها • ومسحتها لكى تتمكن من مراقبة ليروى •

وكانت قد انتظرته فى الطريق منذ ساعتين • وكان الغروب قد اقترب عندما سمعت الضوضاء الصادرة عن سيارة نقل الأخشاب وهى تدرج فوق الجسر الخشبى عند فلورى برانش ، وعندئذ هبت واقفة فى منتصف الطريق ولوحت له بيديها • وكانت تعتقد فى تلك اللحظة انه بدا سعيدا لرؤيتها • وكادت تبكى من الفرح عندما ابتسم لها •

وقال لها :

ـ هالو ، كيتى •

وسألته فى لهفة وهى تريده ان يحيطها بذراعيه :

ـ الن تهبط من السيارة ياليروى ؟

وصمت عندئذ ، وقد ازعجها هذا الصمت •

ـ ليروى !

وابتسمت له بجراة ، محاولة ان تخفى الخوف الذى استولى عليها •

وكان ذلك عندما هز رأسه ، وهو يميل الى الخلف فى مقعده • لقد احتقرها •

وكانت تنظر اليه الآن عبر الطريق ، وهو يزيل التراب الأصفر الذى التصق بعينيه • وكان قد ازال منظاره ورمى به بعيدا • وبدا عليه انه يعتقد أنها قريبة منه ، لأنه استمر فى سبها بصوت مرتفع •

وقال :

ـ انك لست أكثر من فاجرة تعمل فى حقول القطن •

وكان هذا ما آلمها بنفس القدر الذى آلمها به احتقاره لها • وأحست وهى تتذكر ذلك ان وجهها اصبح ملتهبا جافا •

وكانت الشمس تغيب ، وكأنها تعبت فجأة من طول النهار • وكانت المنطقة الواقعة ناحية الشرق قد بدأ يشملها الهدوء والبرودة • وسبحت فى السماء سحابة سوداء صغيرة تتجه ناحية الشمس فى الأفق • وبعد بضع لحظات بدات السحابة تصطبغ باللونين القرمزى والذهبى وأشعة الشمس تسقط عليها • وسادت لحظة أصبح فيها الجانب الغربى باكمله من السماء يبدو وكأن النار قد شبت فى العالم • وبعد ذلك ، غاصت الشمس بعيدا عن البصر تاركة السحابة سوداء لا حياة فيها • وكان الهواء يتحرك ببطء ، لأول مرة فى ذلك اليوم ، واهتزت أغصان الأشجار محدثة حفيفا بين الأوراق الخضراء الثقيلة •

ونسيت كيتى فى تلك اللحظة امر ليروى • ثم استدارت بسرعة فرأته واقفا فى الطريق على بعد خمسين ياردة منها • وكان قد رفع هامته ، ولم يعد يسبها • وأخذ يراقبها وهى تسير مخترقة الحشائش التى تبلغ ركبتها فى الارتفاع ، وتسير فى حركة دائرية داخل الحقل متجهة نحو الطريق •

كانت تعلم ان علاقته بها انتهت • وقد ادركت هذا من الشعور الذى احست به ، ومن الطريقة التى نظر وتحدث بها اليها ، ومن الفزع الذى كان يثيره فيها الهواء حين يمر فى حلقها الملتهب • وأحست بالأسف لاقدامها على الاختباء فى جانب الطريق والتعلق بسونى كلارك أثناء مروره، ولسماحها لمسز نارسيسا كالهون بأن تذيع فى أنحاء المقاطعة قصة الاغتصاب، ولوقوفها عند المدخل الأمامى للبيت عارضة نفسها على الرجال المتجمعين فى

الفناء الامامى . لقد كان ليروى يعلم الصدق في كل هذا . وكان هذا هو مبعث احتقاره لها ، لقد انتهت علاقته بها .

وكان فى تلك اللحظة ينظر اليها من المكان الذى يقف فيه فى الطريق. وبدات تتحرك الى الخلف مبتعدة عنه . ونفض ليروى التراب من على سرواله وفتح باب سيارة النقل . وكان لا يزال ينظر اليها وهو يدلف الى الداخل.

وبعد ان ذهب ليروى ، بدات تحس بالوحدة . وقبل ان تدرى ماذا الم بها ، وجدت نفسها تبكى . وبينما هى تشق طريقها الى جانب الطـريق ، والدموع تنساب باردة على خديها الملتهبين ، مدت يديها وانتزعت قدرا من الحشائش حملته بين ذراعيها . كانت تحس بحاجتها الى شىء تتعلق به . ثم هبطت الى الارض ، واضعة وجهها فوق ركبتيها واحاطت راسها بذراعيها . انها لم تشعر بمثل هذه الوحدة من قبل . واخذت تشهق ، وهى تتمنى لو كانت امها حية حتى تذهب اليها . واحست انها لو استلقت بين ذراعى امها ، لكان فى وسعها أن تحتمل الألم الذى بلغ حدا من الشدة لم تستطع معه ان تمنع نفسها من البكاء . وظلت تبكى فترة طويلة بكاء حارا وهى تحيط نفسها بذراعيها ، محاولة ان تبعد عن ذهنها الأشياء التى صنعتهـا واحتفظت بها فى صندوق الثياب الموضوع تحت السرير .

وحاولت أن تتوقف عن التفكير فى جميع الأشياء التى تملأ ذهنها .. وكان الاحساس الذى شملها بعد كل هذا هو أنها لا تريد أن تظل حيـة بعد الآن .

وتمنت لو أنها ماتت . وأحست بالأسف لأنها لم تبق فى الطريق عندما هددها ليروى . لو انها بقيت ، لما كانت ملقاة فى مكانها هذا تعانى الألم .

وكان ضوء الشفق قد اختفى ، عندما فتحت عينيها ورفعت رأسها . واستولى على ذهنها شعور مفاجىء بالخوف جعلها تهب واقفة على قدميها . وتلفتت حولها الى الظلمة المحيطة بها . ولم تكن واثقة من أنها لم تستغرق فى النوم وتحلم ، ومهما يكن الامر ، فقد احست ان شخصا يزحف نحوها فى الظـلام . وجرت نحو الطريق وهى تصرخ دون ان تجرؤ على النظر خلفها .

وعندما انهكها الجرى ، توقفت وهى تلهث فى الم . وكان قلبها يدق فى صدرها بصورة كاد ان ينخلع بها من مكانه . ونظرت الى الطريق خلفها دون ان تتمكن من رؤية ما اذا كان هناك من يتبعها أم لا . ولم تصل الى سمعها اية أصوات . ولكنها احست أن شخصا يراقبها فى الظلام . واخذت تجرى فى الطريق باسرع ما يمكنهـا ، وهى تصرخ . وكانت تسقط على الأرض بأسرع من استطاعتها النهوض على قدميها .

ومهما كانت السرعة التى تجرى بها ، فانها لم تستطع أن تتخلص من الخوف الذى استولى عليها . وكانت تحس ان شخصا ما بالقرب منها سوف يضربها فى اية لحظة بقوة وحشية فيسقطها على الأرض . وضلت الطريق فى الظلام ، فوجدت نفسها تتعثر وتسقط فى حرش من أشجار الصبار . وناضلت لتخلص نفسها وتقف على قدميها ، ثم جرت وقد امتلأ جسـدها بالخدوش التى تنزف دما ، فى محاولة أخيرة للهرب .

الفصل العاشر

بعد ان قضى جيف ماكيرتن قيلولة طويلة لم يزعجه فيها أحد ، هبط الى غرفة مكتبه فى الطابق السفلى ، ليرى ان كان قد حدث أمر غير عادى فيما بين الظهر وحلول الظلام . وكانت هذه هى المرة الأولى منذ أسابيع التى يستطيع فيها ان يحصل على نوم طويل لا يزعجه خلاله احد أثناء النهار . وكان ما يحدث عادة أنه ما ان يحس بالرغبة فى الاغفاء بعد الظهر ، حتى يوقظوه باستمرار لكى يتولى أمر أحد البلاغات أو حكما صادرا ضد بعض الفلاحين فى الطرف الأقصى للمقاطعة .

وكان برت ينتظره عند قاعدة الدرج . وتبع جيف الى غرفة المكتب .

وسأل برت :

– هل حدث شىء ؟

فقال برت :

– لا شىء على الاطلاق يا شريف جيف . لقد مضى بعد الظهر كله فى هدوء . ولم يكن من الضرورى أن تقطع قيلولتك الا اذا كانت هناك حاجة اليك . فأنا وجيم نرقب الأمور .

وادار جيف بصره فى الغرفة ، ثم غادرها مسرعا ، وسار الى المدخل وهو يحس بالراحة والهدوء .

وكانت أنوار الطريق قد أضيئت منذ برهة . وقد ملأته أشعة الضوء الرفافة بالرغبة فى أن يعود مرة أخرى الى الفراش . وسوف تذهب كورا الى الفراش قبل أن يمر وقت طويل ، فيرقد بجوارها وينسى متاعب العالم

الخارجى . وكان اليوم التالى هو يوم السبت ، وسوف تصله من المحكمة بكل تأكيد كمية كبيرة من الأوراق ليتولى أمرها .

وظهر برت الى جانبه وفوجى ببرت يقول له :

– انهم لم يجدوه بعد ، يا شريف جيف .

– من هو الذى لم يجدوه بعد ؟

فقال برت مندهشا :

– ذلك الفتى الزنجى .

فقال برت ناظرا الى الطريق :

– أوه .

وبعد لحظات قليلة استدار الى برت وقال :

– ولكن سام عاد ، أليس كذلك ؟

– لا يا شريف جيف . ويبدو ان سام برنسون قد اختفى تماما . فان أحدا فى المدينة لم يسمع عنه شيئا .

وقال جيف ببطء :

– هذا سىء . هذا سىء ، حقيقة .

وسار حتى ركن المدخل ونظر الى السماء . وكانت النجوم براقة كثيفة . ولم يكن الوقت قد حان بعد لشروق القمر .

وتساءل :

– وماذا عن القاضى بن الآن ؟ الم يتصل تليفونيا ؟

فقال برت :

– لا يا سيدى ؟

وسكت جيف وهو يفكر . وقال بعد برهة :

- لقد مضى وقت أطول مما ينبغى للقبض على ذلك الفتى الزنجى • وانني لأرغب فى أن أعرف ماذا يؤخر الأمور على هذه الصورة •

فقال برت يذكره :

- لم تمض أكثر من أربع وعشرين ساعة يا شريف جيف • فان الاضطرابات لم تبدأ الا فى مثل هذا الوقت من الليلة الماضية • وسوف يعتقلونه قبل الصباح على الأرجح •

- أعتقد انك على صواب فيما يتعلق بالوقت ، ولكننى أشعر وكأن أسبوعا قد مر على فى هذه الحالة من القلق • ولكن الرجل الملون سام برنسون قد غاب هو الآخر وقتا طويلا • اننى قلق عليه •

ولم يقل برت شيئا • وانتظر ليرى ان كان لدى جيف أية تعليمات له •

وقال جيف محملقا فى الضوء الساقط على الطوار :

- اننى بكل تأكيد على استعداد لأن أعطى الكثير لكى أعلم ما حدث لسام • فليس من حق الناس ان يختطفوا كائنا بشريا بهذه الطريقة • ان اختطاف شخص يطيع القانون حتى ولو كان زنجيا ، لأمر يعرض من يقوم به لعقاب القانون • فسام لم يؤذ مخلوقا فى هذا العالم • انه شخص لطيف، ولم يحاول أبدا أن يؤذى مخلوقا •

واخذ جيف يقطع المدخل جيئة وذهابا عدة مرات مقطب الجبين مستغرقا فى التفكير • وظل برت يحوم عند الباب حتى يلبى نداء جيف اذا ما احتاج اليه • ومضت خمس دقائق اخرى قبل أن يتوقف جيف عن المشى •

وقال بسرعة وهو يهبط الدرج متجها نحو سيارته الواقفة فى الطريق:

- احضر قبعتى يا برت • اننى أريدك أن تقلنى فى السيارة الى فلورى برانش • فسوف أقوم ببعض التحريات هناك •

- ولكن يا شريف جيف ••••

- احضر قبعتى كما قلت لك •

وعندما غادر برت مبنى السجن ومعه القبعة كان جيف يجلس فى السيارة منتظرا • وجلس برت الى عجلة القيادة ••

- برت ، سوف نذهب انت وانا للقيام بمهمة رسمية ، هى لكمال بعض الأعمال التى لم تستكمل بعد •

وأشار بيده فى اتجاه الطريق الموصل الى فلورى برانش ، وهو يطلب من برت أن يدير محرك السيارة •

وانطلقت بهما السيارة ببطء خارج المدينة ، وبعد بضع دقائق كانا قد وصلا الى الريف ، والسيارة تدرج بهما خلف شعاع من الضوء الكشاف الأبيض الذى يزرع الظلمة فى جانبى الطريق • وكان هناك عدد قليل من النوافذ المضاءة فى الطريق رغم ان المساء كان لا يزال فى بدايته • ومرا عدة مرات بمنازل لم يكن يبدو منها غير شعاع ضئيل من الضوء من أسفل الأبواب • وكانت كل أكواخ الزنوج مغلقة مظلمة ، وتبدو كأنها خالية مهجورة •

والتقيا فى طريقهما ، خلال نصف الساعة التالية ، بعدة عربات ،كانت جميعها تسير ببطء • والتقيا فى احدى المرات بجماعة من الرجال عند منحنى فى الطريق • وقد اندفع اثنا عشر أو خمسة عشر شخصا من بين الشجيرات التى تنمو بجانب الطريق عندما سقطت عليهم فجأة أنوار السيارة الكاشفة• وكانوا يقفون بجوار نار مشتعلة ينبعث منها الدخان • وكان الدخان المتصاعد يصل الى مسافة تقدر بعدة مئات من الياردات • وظل جيف وبرت محاطين بسحابات منه خلال الدقائق القليلة التالية •

وعندما اقتربا من جسر فلورى برانش ظهر أمامهما ضوء يومض فى خفوت • وما أن ازدادا اقترابا حتى استطاعا أن يميزا خليطا من السيارات يبدو أنها أوقفت على عجل وتركت مكانها • وكان عدد كبير من السيارات واقفا وأنواره الكاشفة مضاءة • وكان هناك عدد آخر من السيارات يكاد أن يكون واقفا فوق الجسر •

وقال جيف بقلق :

ـ توقف يا برت .

واستقام فى مقعده محملقا أمامه فى قلق . واضاف قائلا :

ـ اطفىء الأنوار وقد السيارة ببطء .

وزحفا على الطريق حتى اصبحا على مسافة بضع ياردات فقط من أقرب السيارات اليهما . ولم تقع ابصارهما على اى من الرجال ، ولكنهما استطاعا أن يسمعا اصواتا كثيرة صادرة من الجسر .

وتساءل برت فى عصبية محاولا أن يتحدث فى همس خفيض :

ـ اتعتقد أنهم قبضوا عليه يا شريف جيف ؟

فتساءل جيف :

ـ قبضوا على من ؟

ـ سونى .

فقال بصبر نافذ :

ـ لست أدرى .

وأشـار الى برت ليقف بالسيارة على أحد جانبى الطـريق . وما ان توقفت السيارة حتى فتح جيف الباب وهبط منها .

وقال مدافعا عن نفسه :

ـ اننى لن أنسى نفسى . فلا زلت اهدف الى جعل عملية الشنق هـذه نظيفة سياسيا . ولكننى قلق من أجل سام .

وبدلا من أن يسيرا فى الطريق ، مضيا فى طريق جانبى بين الشجيرات حتى وصلا الى بقعة تطل على الجسر . وكانا ، فى المكان الذى يقفان فيه ، فى أمان من أن يميزهما أحد . وكان عدة رجال يتحدثون بصوت مرتفع . ووقف جيف وبرت خلف أحد أشجار الجوز محاولين الانصات لما يقال .

وكانا يستطيعان ، وحتى وهما فى ذلك المـكان الذى وقفا فيه ، أن يتعرفا على عدة رجال يعرفونهما . وكان شيب بارلو وكلينت هاف يقفان فى منتصف الجسر وكل منهما يواجه الآخر . وكان بقية الرجال محتشدين خلفهما .

ووصل الى سمعهما صوت شيب وهو يقول :

ـ أنا الذى أتولى عملية المطاردة هذه . واذا كان هناك من لا يعجبـه أسلوبى فى ادارتها فليذهب الى الجحيم بعيدا عن هنا . اننى أتولاها كما أشاء .

وتقدم كلينت هاف عدة خطوات ، وقال غاضبا :

ـ ماذا تعنى بايقاف سيارتك فى منتصف الطريق وسده على كل شىء ! ليست هذه هى الوسيلة التى تتبع للقبض على أحـد الزنوج . ان أمى تستطيع أن تفعل أفضل منكم . وكل هذا الصياح والصراخ يعطيه افضـل فرصة للفرار من هنا . ابعد سيارتك هذه عن الطريق !

واقترب كلينت من شيب . وصاح :

ـ ابعد سيارتك اللعينة عن الطريق يا بارلو ! اننى لن اقف هنـا طوال الليل أنتظرك حتى تعود الى رشدك . سوف ألقيك من فوق هذا الجسر اذا لم تتحرك لتفعل شيئا .

ولكز جيف برت .

وقال جيف فى همس :

ـ انهما يتجادلان بشأن الزنجى كلارك . انها ليست نفس الزمرة التى اختطفت سام .

وتراجع شيب حتى وصل الى حافة الجسر . وصاح محركا ذراعيه فى الهواء :

ـ اننى أتولى عملية المطاردة هذه كما أشاء . وليتبعنى كل من يريد ان يقبض على الزنجى !

ولم يتحرك احد .

وقال كلينت :

ـ اننى لا أتلقى أية أوامر من احد السكارى . واذا لم تبعد سيارتك هذه من الطريق فسوف أهشمها بسيارة نقل .

وواجه الرجلان بعضهما البعض فى حين اقترب الجمع منهما حتى يمكنهما مشاهدة ما يحدث بشكل أفضل .

وقال احد الرجال المحتشدين :

ـ هذه أسوأ عملية مطاردة لأحد الزنوج رأيتها فى حياتى . ان كل شخص يثرثر وسوف يفر الزنجى من هنـــا بأقصى سرعة تحمله قدماه . ليست هذه بالوسيلة التى تتبع للقبض على أحد الزنوج .

ـ دع شيب بارلو وحده ! انه يعرف ماذا يفعل !

ـ اننى أراهن على كلينت !

ـ هذه أسوأ وسيلة للقبض على أحد الزنوج !

ـ هذه ليست مطاردة لأحد الزنوج ـ انها مباراة فى الكلام !

ومد كلينت يده فى جيبه بحثا عن سكينه ، وقبل ان يخرجها اندفع شيب الى الأمام وألقاه أرضا . ووقع كلينت ممددا على ظهره .

وصاح شخص ما محذرا :

ـ لا تدعه يتناول سكينه ويهددك بها يا شيب ! فسوف يقطعك اربا كأنك أحد الحبال !

ـ اصمت ودعهما يتقاتلان . ان شيب بارلو يستطيع العناية بنفسه، سواء أكان سكران أم صاحيا . لقد رأيته من قبل يتقاتل وهو سكران .

وأسرع حلاق اندروجونز الى شيب وفى يده مفتاح انجليزى مما يستعمل فى فك الصواميل . وقبل أن يتمكن من ضرب شيب ، أزاحه احد الأشخاص نحو حاجز الجسر . فسقط بعيدا عن الأنظار .

وقال احد الأشخاص :

ـ عليكم اللعنة ، ليس هذا ، أيها القوم ، بالأسلوب الذى يجب أن يتبع ! وفروا قواكم أيها الناس وتشاجروا غدا أو فى أى وقت آخر . لقد جئت الى هنا لتعقب احد الزنوج .

والتقط احد الأشخاص كلينت ودفعه نحو السيارات . وتبعهما خمسة عشر أو عشرين شخصا .

وتساءل عدة رجال :

ـ ماذا سنفعل الآن يا شيب ؟

ونفض شيب التراب عن ملابسه واتجه نحو سيارته . وبدأ الرجال الواقفون فوق الجسر يتجادلون فيما بينهم ، ولم يستقر رأى بعضهم على من يتبع ، كلينت أو شيب .

وتراجع جيف وبرت وسارا فى حركة دائرية مخترقين الشجيرات حتى وصلا الى المكان الذى تركا فيه السيارة . وكان جيف يسـير مسرعا عبر الأرض المنخفضة عندما سقطت عليه أضواء احد المصابيح الكشافة . وتجمع حوله عدة رجال .

وقال أحدهم :

ـ ماذا بحق الجحيم تفعل هنا يا ماكبرتن ! انه لأمر مضحك ان نعثر عليك هنا حيث لا يوجد ما يدعو الى وجودك . لعلك لا تعتزم خداع احد ، أليس كذلك ؟

وبدأ اثنان من الرجال يدفعان برت نحو الطريق بخشونة .

وتساءل أحد الآخرين :

ـ لماذا لم تتوار كما قال لك القاضى بن الان ؟ لقد تحدثت الى القاضى بن الان تليفونيا وقد اخبرنى أن . . .

وقال جيف بقلق :

- والآن توقف لحظة . لا توجد فائدة تعود على احد فى العالم الواسع باكمله من اساءة فهمى . لقد بذلت كل جهدى لكى تكون عملية الشنق هذه نظيفة سياسيا . وذلك هو السبب في اننى لن أدعى أية مزاعم زائفة تبريرا لوجودى هنا . ان كل ما اريد ان افعله هو أن اعرف ماذا حدث لسام ...

- سام من ؟

فقال جيف :

- سام برنسون ، الرجل الملون . ان الجميع يعرفون سام . انه ذلك الزنجى الذى يعمل دائما فى تجارة السيارات القديمة ويتورط بين الحين والحين فى مآزق بشأن الرهونات . لقد اختطف بعض الأشخاص سام، وقد جئت لكى اعرف ماذا حدث له .

- ليس هذا سببا يدعوك للتلصص هنا أثناء بحثنا عن ذلك الزنجى كلارك يا ماكيرتن .

وقال جيف متوسلا :

- والآن ، أيها الأولاد ، لا تتعجلوا النتائج . لقد ظننت انه قد يوجد هنا من يعرف شيئا عنه . لقد اختطف من مبنى السجن اليوم فى الصباح الباكر ، ولكن لا علاقة له على الاطلاق بهذه الاضطرابات . فهو يقع بين الحين والحين فى المتاعب عندما يبيع احدى سياراته القديمة قبل أن يفك رهنها ، ولكنه لا يسعى الى ايقاع الأذى بأحد .

وقال الرجل :

- هذا احد مواسم العام السيئة بالنسبة للزنوج الذين يقعون فى المتاعب . وليس من مصلحة ذلك الزنجى برنسون ، أو أى زنجى آخر ، ان يصطدم الآن بأحد البيض .

فقال جيف معترضا :

- ان سام لم يسبب أبدا أذى لأحد . ولكن يبدو أنها طبيعة ثانية فيه أن يرغب دائما فى مبادلة سياراته القديمة .

وقال صوت شرس :

- حسنا ، انه ليس هنا يا ماكيرتن . وأفضل مكان لك فى وقت كهذا هو مبنى السجن هناك في اندروجونز .

واتجه جيف الى سيارته الواقفة بجانب الطريق . وسار الرجال الى جانبيه فى صمت . ولم يرض جيف عن الطريقة المستهترة التى يقبض بها بعض الرجال على مسدساتهم وبنادقهم ، وأخذ يراقبهم فى عصبية .

وخرج من الظلام بشكل فجائى عدة رجال آخرين ، ولكن أحدا منهم لم يقل شيئا . وكان يبدو على الوجوه فى الظلام الجهامة والتصميم .

وكان برت يقف فى المنخفض المجاور للطريق ، وحوله ستة رجال يحملون البنادق تحت أذرعتهم . وكان يبدو عليه الانزعاج .

وقال احد الأشخاص :

- وهو كذلك يا ماكيرتن . تذكر الحديث الذى تبادلناه هناك منذ برهة .

وارتقى هو وبرت السيارة . وكان الرجال ، الذين بلغ عددهم فى ذلك الحين خمسة عشر أو عشرين رجلا ، ينتظرون فى نصف دائرة بينما كان برت يدير المحرك وينطلق بالسيارة فى الطريق نحو اندروجونز .

وبدأ برت يتحدث بعد أن ابتعدا ميلين أو ثلاثة . وكان قد ظل صامتا أطول مدة يستطيعها .

وقال مقترحا :

- لعله يجب علينا ان نذهب رأسا الى مبنى السجن . فليت هناك أية أنباء عن مكان جيم كوتش ، ويجب أن يوجد هناك احد خشية أن يحدث شىء .

وأشار اليه جيف أن يبطىء من سير السيارة . فاوقفها برت فى الحال بجانب الطريق .

وقال جيف بعزم فجائى :

ـ فليـــدمر الله كل شيء . اننى لن أســمح لجمع من المواطنين الذين ينتهكون القانون أن يمنعونى من العثور على سام . لا ! اننا لن نعود الى المدينة الآن . اننى لن أستطيع أبدا أن أتغلب على ما يحدث لى لو أصاب سام برنسون شيء . فلنجلس هنا في برودة الليل قليلا حتى أستطيع أن أفكر فى الأمر تفكيرا سليما . لقد استقر رأيى على الا أعود الى المـدينة حتى أعلم ماذا حـــدث لذلك الزنجى . وســوف أســتمر فى البحث الى ما شاء الله .

الفصل الحادى عشر

أشرق القمر مكتملا مضيئا من خلال الظلمة المحيطة بغابات الصنوبر . وكان الغبار الأصفر الناعم الذى أثارته السيارات العـــديدة المنطلقة فى الطرقات غير المرصوفة قد غطى الأرض المنبسطة بطبقات يعلو بعضها بعضا . وكانت الأوراق الخضراء الداكنة فوق الشجيرات التى تنمو على جانب الطريق مغطاة بالغبار الأصفر ، ولكنها كانت تلمع فى خمول بما تجمع فوقها من قطرات الندى ، ونسيم الصيف الحار يهب دون أن يكون له اتجاه محــدد من حقل الى آخر . وكان الريف هادئا ساكنا فيما عدا نباح كلب يصل الى الأسماع احيانا قادما من بعيد .

وظل برت صامتا فى مقعده بجوار جيف منتظرا منه أن يتحدث مرة اخرى . واستمر كذلك ما يقرب من نصف ساعة ، ثم أخرج ساعته ونظر فيهـــا .

وقال وهو يتأمل وجه جيف فى الضوء الذى يسقط عليه من السيارة :

ـ اننى لا أريد أن أتحدث فى هذا الأمر مرة أخرى يا شريف جيف ، ولكن يجب أن يكون هناك أحد فى مبنى السجن .

وتساءل جيف بلا هدف :

ـ لمـــاذا ؟

ـ ربما يحاول القاضى بن الان الاتصال بك . فلو أنه غير رأيه وأراد منا أن نفعل شيئا فلن يستطيع الاتصال بنا .

وأشار اليه جيف ليدير محرك السيارة .

ومضت بهما السيارة فى بطء فى الطريق الرئيسى مسافة الميل والنصف التالية . وكانا لا يزالان على مسافة تسعة اميال أو عشرة من اندروجونز عندما أبدى جيف رغبته باشارة من يده فى أن يتحول عن الطريق الرئيسى ويسير في زقاق ضيق غسلته الامطار ويقع بين حقلين من حقول القطن الذى يصل ارتفاعه حتى ركبة الانسان . ولم يدر برت ماذا يدور فى ذهن جيف . ولكنه نفذ تعليماته دون أن يبدى تعليقا . ولم يستطع أن يميز الطريق الجانبى الوعر ، ولكنه اعتبر من المسلم به أن جيف يعرف ما يفعل .

وكان عليهما أن يعبرا جدولا من الماء ، ولكن برت أوقف السيارة قبل أن يعبراه . وتساءل فى قلق :

ـ الى أين يقودنا هذا الطريق يا شريف جيف ؟

فقال بسرعة :

ـ لا تلق بالا لما يقودنا اليه . استمر فى السير . اننى أعرف كل شق في مقاطعة جولى بمثل ماأعرف مايدور داخل رأسي . وعلى أية حـال ، لقد كنت هنا فى الطريق منذ أسبوع . استمر فى السير .

وعبرا الجدول الضحل ، وانطلقا فى الطريق الضيق مسافة تقترب من ثلاثة ارباع الميل . واصطدمت السيارة وهى في قاع أخدود من الارض بجانب اكمة مرتفعة ثم توقفت . وكان الطريق قد انتهى بشكل فجائى عند أحد جوانب حظيرة بقر متهدمة . وكان من الممكن رؤية معالم كوخ مكون من غرفتين خلف الزريبة المتهدمة .

وفتح جيف باب السيارة وهبط منها قبل أن يتمكن برت من أن يقول شـــيئا .

وتبع برت جيف فوق حاجز من السلك الشائك ممتد بين الحظيرة وشجرة تفاح تقع فى ركن من الفناء . وكان السلك الشائك صدئا ويحدث صريرا عند لمسه . وفى داخل المكان الذى يحيط به السلك الشائك تبعثرت بقايا ما كان يبدو انه عشرات من السيارات القديمة التى أصيبت بكل نوع يمكن

تصوره من التحطيم . وكانت تبدو فى ضوء القمر كانها الهياكل العظمية لدجاج انتزع لحمه .

وكانت بعض السيارات ملقاة على جوانبها ، والبعض الآخر مقلوبا تماما ، وكانها سلحفاة ملقاة على ظهرها . وكانت بقايا الفرش الذى يغطى ارائك السيارات ، والتروس الصدئة ملقاة فى الفناء المغطى بالرمال ، وكانها انتزعت من السيارات وأهمل أمرها . وغمرت الأضواء الكشافة المنبعثة من سيارة الشريف ماكيرتن كومة من الاطارات الصدئة فى ضوء احمر دائما .

وكان جيف يشق طريقه داخل الفناء .

وتساءل برت وهو يجرى ليلحق به قبل أن يصل الى باب الكوخ مباشرة :

ـ ما هذا يا شريف جيف ؟

فقال جيف وهو يستدير محملقا فى برت فى دهشة :

ـ هذا هو المكان الذى يقيم فيه جيم بنسون عندما يعود الى بيته . كنت احسب ان كل الناس يعرفون هذا . اننى أريد أن أعرف ان كان اولئك الرجال قد أطلقوا سراحه دون أن أعلم .

وطرق الباب ، وصاح مناديا :

ـ هالو ! هالو !

ولم يسمع فى الداخل أى صوت . وكانت النوافذ مغلقة باحكام بوساطة مصاريع خشبية ، ولم يكن يظهر من الباب أى شعاع من الضو .

واخذ جيف يضرب الباب الرقيق بقدمه ، واهتز المبنى كله .

واحنى رأسه واخذ ينصت عند شق فى الباب . وتمكنا من أن يسمعا بشكل واضح حفيفا فى الداخل صادرا من خشبة مصنوعة من قش القمح . وبعد برهة وصل الى سمعهما صوت اصطدام مقعد بالأرض عند سقوطه .

وتراجع جيف الى الخلف وهو ينظر الى برت .

وفتح الباب فى تلك اللحظة مقدار بوصة لا أكثر · ولم يستطيعا أن يشاهدا أحدا ·

وتساءل جيف فى أمل وهو يميل الى الامام محاولا أن يرى الوجه الأسود خلف فتحة الباب :

ـ أهذا أنت يا سام ؟

وتساءل صوت واهن لامرأة :

ـ من هناك ؟

وقال محاولا ان يجعل صوته يبدو وديا :

ـ اننى أود أن أعرف ان كان سام فى البيت · اننى الشريف ماكيرتن من أندروجونز ·

وصفق الباب ، فهز كل أرجاء الكوخ ·

ونظر الى الباب برهة ، ثم أخذ جيف يطرق الألواح الخشبية فى عنف · وتراجع الى الخلف ووقف ينتظر ، ولكنه لم يتلق جوابا ·

وتساءل :

ـ هل أنت زوجة سام ؟ هل أنت العمة جينى ؟

وتساءلت فى ارتياب :

ـ وكيف علمت هذا ؟

فأجاب مسرعا :

ـ اننى أحاول أن أجد سام ، أيتها العمة جينى . فهو ليس فى السجن الآن ·

وفتح الباب · وأطل منه وجه العمة جينى البراق · ونظرت الى جيف وبرت فى ارتياب وهى تضم قميص النوم القطنى الأحمر حول صدرها فى احكام ·

وقالت بحزم :

ـ لقد أرسل سام الى يقول انه محبوس فى السجن ·

ونظرت الى الرجلين الأبيضين فى لهفة :

ـ أليس هناك فى السجن كما قال ؟

وهز جيف رأسه ببطء ·

وقالت :

ـ لقد كنت أفكر كيف يمكننى الحصول على خمسة دولارات أدفعها كفالة لاخراج سام من السجن · ولكن اذا كان هذا الرجل يخدعنى ، فاننى سوف ألقنه درسا قاسيا عندما أضع يدى عليه ·

وتوقفت عن الحديث فجأة لاهثة الأنفاس · ثم استطردت قائلة :

ـ لن تستطيع أية امرأة ذات شعر أصفر أن تنتزع رجلى منى · وعندما أضع يدى على سام هذا فاننى سأعيد الى رأسه بعض العقل ·

فقال جيف متحدثا بحذر :

ـ ليس الأمر كذلك تماما ، أيتها العمة جينى · فليست المشكلة خاصة بالنساء هذه المرة · لقد اختطف بعض الرجال البيض سام · وهذا هو السبب فى اننى هنا أبحث عنه ··

وتشبثت العمة جينى بالباب بيدها الطليقة · وبدت عيناها وكأنهما انقلبتا داخل رأسها ·

وصاحت :

ـ ليساعدنى الله ! هل دس ذلك الرجل نفسه فى مأزق مثلما فعل سونى كلارك ؟

فقال جيف يطمئنها :

ـ ان الأمر ليس كذلك · لقد اختطف سام عن طريق الخطأ ·

ولم يقل أحد شيئا بضع لحظات . وكانت العمة جينى تضم القميص القطنى الأحمر باحكام حول عنقها ، ثم تراجعت داخل الكوخ .

وظهرت رأسها فجاة مرة أخرى .

وتساءلت غير مصدقة :

– وليس الأمر متعلقا باحدى السيارات هذه المرة كذلك ؟

فقال لها جيف :

– لا . لقد اختطف سام الى مكان ما بطريق الخطا . ولست أريد أن يصيبه شيء ، ولذلك جئت الى هنا بحثا عنه .

وتراجع بعيدا عن الباب ، واستأنف قائلا :

– اذا عاد فاخبريه أن يبلغنى على الفور . سأكون منزعجا من أجله اذا لم يظهر قريبا .

ووعدته قائلة :

– سأخبره بما قلته يا شريف . سأقول له نفس كلماتك .

واستدارا ثم بدآ السير بعيدا عن الكوخ . وصاحت العمة جينى وهى تستدير بعيدا قبل أن يستطيع جيف أن يجيبها :

– متى يترك القوم البيض الملونين وشانهم ؟

وأغلق الباب بقوة .

وقال جيف :

– فليدمر الله كل شيء . وددت لو أن الناس لم يسببوا لى كل هذه المتاعب . يبدو لى أن الناس يثيرون المتاعب لى دائما . فرجل فى مثل سنى كان يجب أن يكون فى فراشه فى هذه الساعة من الليل ، بدلا من ان يذرع البلاد محاولا أن يعيد الأمور الى نصابها . ليس فى كل ما يحدث أى ذرة من العقل .

وسار متصلب العود مخترقا الفناء وهو يتلمس له طريقا بين السيارات، ويخطو بحرص فوق أكوام حواجز اصطدام السيارات التى علاها الصدأ والاطارات البالية . وعندما مر بهيكل مهشم لاحدى السيارات توقف وألقى يده عليه برهة . وعلقت بأصابعه كميات من الصدأ وهو يربته في رفق .

وقال باعجاب :

– ان سام يحب بكل تاكيد ان يجمع حوله السيارات ، أليس كذلك ؟ لو كنت رجلا غنيا ، لكان أول ما أفعله هو ان أهدى سام سيارة تستطيع ان تسير . وسوف يشعر بسرور كبير عندما تكون لديه سيارة يمكنه ان يرتقيها ، أليس كذلك ؟

وأومأ برت برأسه ، وهو يتساءل عما اذا كان جيف سيعود الى المدينة . وازعجه ان يفكر فى أنه لا يوجد فى مكتب الشريف أحد يتولى الأمر فى وقت كهذا .

وسار حتى وصل الى جانب جيف . وقال :

– قد يريد القاضي بن الان ..

فابعده جيف باشارة سريعة من يده ، وقال بقلق :

– اننى أتصرف على مسئوليتى الخاصة يابنى . فلااستطيع أن أجلس مكانى دون أن أحاول أن أفعل شيئا من أجل سام برنسون .

– ولكن ...

فقال بلهجة غريبة :

– لا مكان للسكن هنا يابنى . ان سام برنسون يعتبر بمثابة صديق خاص لى حتى ولو كان رجلا ملونا . ولا أستطيع أن أحتمل حدوث شيء له .

– وماذا ستفعل يا شريف جيف ؟

فقال متجنبا النظر الى عينيه وهو يتحرك كالأعمى مخترقا الفناء نحو السيارة :

– سابحث عنه حتى النهاية يابنى .

الفصل الثانى عشر

كان شيب بارلو يجرى ، وجيبه يهبط تحت تاثير ثقل مسدسه ، في الزقاق الضيق الذى يفضي الى حى الزنوج المقام في أراضي بوب واطسون. وكان يتبعه ستة رجال او ثمانية ، فى حين سار بقية الحشد خلفه بخطوات أكثر بطئا . وكان شيب متعجلا الوصول الى هناك الى حد انه لم يستطع الانتظار . وبدأ يجرى ، بعد أن تسلقوا السور الواقع على مسافة مائة ياردة .

وكان الرجال جميعا قد شقوا طريقهم فى الحقل بعد أن تركوا الطريق الرئيسى على مسافة ثلاثة أميال من حى الزنوج . وقد تجنبوا فى حذر الطريق الذى يمر بمنزل بوب واطسون ومخزنه . ولم يضع بوب واطسون اى وقت لكى يجعل الجميع يعلمون انه سيطلق النار على أول رجل يطأ أراضيه الزراعية بحثا عن سونى كلارك . ولم يكن أحد يعلم أين كان بوب واطسون فى ذلك الحين ، بيد أن شيب والجمع الذى كان يتبعه كانوا قد قرروا أن يقوموا بغارة سريعة على حى الزنوج قبل الاقدام على شيء . وكان شيب رجلا جسورا وهو بين الجمع المحتشد حوله ، ولكنه كان يخشى الى اقصى حد مالك الأرض التى يعمل فيها ، وقد هدده بوب واطسون أكثر من مرة بطرده من الأرض اذا لم يوجه عناية أكبر الى القطن الذى كان مسئولا عنه .

وابطأ شيب والرجال الآخرون من خطواتهم عندما وصلوا الى أول كوخ فى الحى . ومروا على أطراف أصابعهم بعدة مساكن دون أن يعلموا فى أيها يقيم سونى . ولم يكن يبدو اى وميض ضوء من أى من البيوت . كانت جميعا تبدو مهجورة . وقد اغلقت المصاريع الخشبية المتينة باحكام على النوافذ فى كل مبنى فى الحى . وكانت البيوت ، كما تبين من الفحص الذى قام به الرجال بأصابعهم ، مغلقة جميعا .

وهمس شيب لرجل يقف بجواره ، يجادله فى أول كوخ يدخلونه من بين الاثنى عشر كوخا او اكثر التى امامهم . وبعد فترة انتظار قصيرة قرروا ان يختاروا كوخا بطريقة عشوائية . وتحركوا جميعا حول المبنى فى صمت .

وبعد أن احاطوا بالمبنى ، فحص أحد الرجال الباب الأمامى فوجده مغلقا بأحكام . فاخرج مسدسه ووضع فوهته على فتحة القفل واطلق النار . وفتح الباب على مصراعيه على الفور .

واندفع عدة رجال الى الداخل وهم يغمرون الغرفة بانوارهم الكاشفة. وتدافع الآخرون حتى أصبحوا فى الداخل . وحطم البعض الآخر المصاريع الخشبية ودخلوا من النوافذ .

وكان رجل زنجى وزوجته مكومين معا على الفراش الوحيد فى الغرفة وقد تجلى فى عيونهما تعبير يدل على الفزع . واخفيا جسديهما تحت بطانية .

وعبر شيب الغرفة متجها الى الفراش ، والقى بالبطانية على الأرض .

ـ ما اسمك أيها الزنجى ؟

ـ لوك ...

ـ لوك ماذا ؟

فاجاب الزنجى وهو يرتجف :

ـ لوك بوتوملى . أرجوك ياسيدى .

ـ أين يقيم ذلك الزنجى سونى كلارك ؟

ـ من يا سيدى ، أرجوك ؟

فصاح فيه شيب ، وهو ينتزع من احد الرجال بندقية ويدفع فوهتها فى رأسه .

ـ لقد سمعتنى أيها الوغد الأسود ؟

وزحف الرجل حتى وصل الى اقصي الفراش وهو يجر زوجته معه فقال شيب :

ـ اجبنى ، هذه المرة ٠

فقال :

ـ ان سونى كلارك يقيم مع جدته مامى تاليافيرو فى بيت لا يبعد عن الطريق اكثر من خطوة ، أيها الرئيس الأبيض ٠ أرجوك يا سيدى ٠

ـ اى بيت ؟

فقال بسرعة :

ـ بعد بيتين في هذا الطريق على الجانب الآخر منه ٠

واندفع جميع الرجال نحو الباب ٠ وقبل ان يصلوا اليه توقف شيب واستدار ناظرا الى الزنجيين ٠ وكان نصف الرجال قد غادروا الكوخ ووصلوا الى الطريق ٠

وقال شيب بصوت مرتفع :

ـ اعتقد اننى سانتظر هنا ٠ سانتظر هنا لأرى ان كان ذلك الزنجى قد صدقنى القول ٠ فلم يمر بى فى حياتى من الزنوج الكثيرون الذين كذبوا على ٠ وعندما يكذب على أحد الزنوج ، أحس بشعور مضحك ٠

وكان لوك وزوجته راقدين يرتجفان من الفزع على طرف الفراش ازاء الحائط ٠ وصرت قوائم الفراش الضعيفة واهتزت ٠

وقال شيب متقدما نحو الفراش :

ـ اننى أنتظرها هنا لأرى ان كنت تكذب على أيها الزنجى ٠

ووصل الى قاعدة الفراش وهو يصوب شعاعا من الضوء الى جسد المرأة العارى ٠ وقال مبتسما :

ـ لن يمر وقت طويل قبل أن أعرف الحقيقة ٠

وكان بعض الرجال الآخرين يعبثون بمحتويات الغرفة المجاورة ، وهى مكان ضيق فيه مائدة وموقد لاعداد الطعام ٠

وسأل شيب الزنجى :

ـ اهذه زوجتك التى ترقد معك على الفراش ؟

وهز لوك رأسه ٠ وفتح فمه عدة مرات ، ولكن لم يخرج من بين شفتيه اى صوت ٠ واخذ يحملق فى فزع فى الوجوه التى تحيط به ٠

وسأل شيب وهو يبتسم للرجال المحيطين به :

ـ هل تحب أن ياتى احد الأشخاص ويغتصبها ؟

فقال بصوت خشن :

ـ اننى بكل تأكيد أكره أن يحدث هذا ، أيها الرئيس الأبيض ٠

فقال شيب مستهزئا :

ـ انك تكره هذا بكل تأكيد ٠ وسوف يغضبك الى درجة تدفعك الى تناول بندقية ترمى بها الرجل بمجرد أن يقع بصرك عليه ، أليس كذلك ؟ سوف تطلق عليه النار حتى ولو كان رجلا أبيض ، أليس كذلك ، أيهـا الزنجى ؟

ونظر لوك فى توسل الى الوجوه البيضاء الملتفة حول الفراش ٠ وهز رأسه مرتبكا ٠

وقال بصوت منخفض ، وبلهفة :

ـ اننى لا أؤذى الرجل الأبيض . أرجوك ياسيدى .

وارتجفت الفتاة الراقدة فى الفراش وهى تزداد اقترابا منه ، وكأنها تلتمس منه الحماية ٠

وسأل شيب الرجل الزنجى بصوت مرتفع مصوبا الضوء الى عينيه :

ـ أين سونى كلارك ؟ أين يختبىء ؟

فقال فى توسل :

ـ اننى لا أعلم شيئا عن سونى ٠ أرجوك يا سيدى ٠ اننى لا أعلم ٠

ـ لقد علمت انه اغتصب فتاة بيضاء ليلة أمس ، أليس كذلك ؟

لقد سمعت شيئا من هذا القبيل ، ولكنني لا اعلم عنه شيئا • فانني لم أر سونى منذ أول أمس . هذا هو الصدق أيها الرئيس الابيض !

ودخل الغرفة أحد الرجال وهو يهز فى يده لوحا من الخشب كان يبدو أنه انتزعه من أحد البراميل • وقال آمرا :

ـ استدر أيها الزنجي •

ونظر لوك فى توسل الى وجوه الرجال الآخرين المحيطين بالفراش • واستدار قليلا مترددا برهة •

وقال متوسلا :

ـ ارجوك يا سيدى الرئيس الأبيض لاتفعل هذا ! اننى لم افعل شيئا اضرب من أجله • ارجوك يا سيدى ، اننى لم افعل شيئا !

وقال أحد الأشخاص :

ـ انك زنجى ، أليس كذلك ؟

ومد أحد الرجال يده عبر الفراش وانتزع قميص نوم الزنجي من على جسده • والتصق هو وزوجته ببعضهما البعض محاولين حماية جسديهما من الرجال البيض •

ـ أيها الرئيس الأبيض ، اننى لم افعل ما استحق ان أضرب عليه • لقد ظللت طوال حياتى لا اهتم الا بشئونى الخاصة • ولو اننى ضربت ، لاحتفظت بفمى مغلقا • ولكننى لم افعل شيئا اضرب من اجله • هذا هو الصدق أيها القوم البيض •

اغلق فمك أيها الزنجى ، والا فانك ستنال أسوأ ضرب ناله زنجى من قبل •

ـ ولكن ، أيها القوم البيض •••

ـ استدر كما قلت لك !

واستلقى على بطنه وهو ينظر الى الوجوه التى تعلوه • وهبط اللوح على ظهره بقوة ، منتزعا من زوجته صيحة فى كل مرة يهبط فيها .

وصاح :

ـ أيها القوم البيض ، ارجوكم ارحمونى !

ـ اغلق فمك أيها الزنجى !

وكان صدى اللوح يملأ أرجاء الغرفة فى كل مرة يصطدم فيها بجسد الزنجى •

وبعد ان تلقى لوك خمس عشرة او عشرين ضربة قوية صدر اليه أمر بان يقف على قدميه فوق أرض الغرفة • فوقف فى ذلة بجوار الفراش •

ووخز أحد الرجال جسد الفتاة بطرف بندقية • وكانت راقدة تبكى وراسها مدفونة فى الوسائد .

وقال لوك بيأس وهو يتحول ناظرا الى زوجته وجسدها يوخز بالبندقية :

ـ ارجوك أيها الرئيس الأبيض ، اضربنى أكثر من ذلك اذا اردت ولكن لا تفعل بها شيئا • انها لم ترتكب أى خطأ ، ارجوك يا سيدى ، لاتفعل بها شيئا !

وقال أحد الأشخاص من بين الجمع :

ـ كم مرة يجب عليك فيها ان تطلب من أحد الزنوج بوب واطسون ان يصمت ؟ يبدو أنهم لا يلقون بالا لهذا !

وبينما المرأة تتحرك فى الفراش تحت تهديد طرف البندقية المصوبة نحوها ، ذهب أحد الرجال الى القاعدة العلوية للمدفأة واحضر زجاجة صغيرة مليئة الى نصفها بزيت التربنتينا •

واحتشد بقية الرجال حول الفراش يراقبون ما يحدث •

وصاح لوك :

ـ أيها القوم البيض ، ماذا تعتزمون أن تفعلوا بها ؟

وصاح شيب وهو يدفع الزنجي الى الجدار بقبضة بندقيته :

ـ لقد قلت لك ان تحتفظ بفمك اللعين هذا مغلقا ، اليس كذلك ؟

وتحول الرجال الى المراة ، فارغموها على ان تستلقى على ظهرها ثم افرغوا زجاجة التربنتينا على بطنها . وارتجفت بعصبية فى البداية ، ولكن ما ان بدأ الزيت يحرقها ، حتى اخذت تصرخ فى الم . ومنعوها من أن تنزلق من على الفراش ، ثم وقفوا بالقرب منها يشاهدونها . وكانت تصرخ فى الم شديد وتمزق جسدها باظافرها ، فاصيبت بجروح اخذت تنزف دما . وحاول لوك أن يتجه اليها ولكنهم القوه على ارض الغرفة .

وكانوا جميعا يقفون بجوار الفراش يشاهدون المراة تتلوى ، عندما عاد الرجال الذين ذهبوا بحثا عن كوخ سونى وهم يهزون رءوسهم .

وقال احدهم :

ـ اننى لا أعتقد ان ذلك الزنجي قد عاد الى البيت على الاطلاق فى الليلة الماضية . وكانت مامى هناك فى الكوخ تتحدث وقد بدا عليها انها لا تعلم عنه شيئا . ولا أعتقد انها كاذبة . فلا تستطيع اية امراة زنجية عجوز مثلها أن تكذب فيما يتعلق بهذا الأمر فى وقت كهذا . فلقد شاهدت فى حياتها متاعب كثيرة مما يجعلها تحذر من الزنوج بنفسها فى اى مازق عن طريق الكذب . لقد قالت انها لاتعلم شيئا عن سونى .

واتجه الرجال العائدون من كوخ مامى تاليافيرو الى الفراش واخذوا يراقبون المراة الزنجية وهى تتلوى عليه . وكانت رائحة التربنتينا قوية الى حد أنهم أدركوا ما حدث لها دون أن يخبرهم أحد ، ووقفوا يتاملون جسدها العارى وهو يتلوى .

وكان شيب أول من استدار وسار مبتعدا عن الفراش . وتبعه معظم الرجال خارجين من الباب الى ظلمة الليل . وسار الى الطريق ببطء وتلفت حوله ، وكان رأيه لم يستقر على ما يفعله بعد ذلك . وكان غضبه يتزايد . والشى الوحيد الذى تمنى ان يفعله هو ان يجد سونى قبل أن يضع كليفت هاف وجماعته أيديهم عليه . وكان يخشى أن يوجد سونى فى مكان آخر ويشنق قبل أن يستطيع هو أن يفعل شيئا . وانتظر الرجال الذين تبعوه من كوخ لوك بوتوملى ليروا ماذا سيفعل بعد ذلك .

وكانت تصل الى أسماعهم أصوات خافته صادرة من ناحية نيدمور ، وهى نجع يقع عند تقاطع الطرق فى قاعدة ايرنشوريدج فى الشمال الشرقى للمقاطعة . ووضع شيب يده حول اذنه محاولا ان يتبين حقيقة الصوت . ولم يستطع أن يميز أى صوت بشرى ، ولذلك فانه لم يلق بالا لتلك الأصوات .

وكان بعض الرجال يقطعون الطريق جيئة وذهابا ، أمام الأكواخ وهم يتحدثون بأصوات خفيضة . واتجه شيب الى أحد الأكواخ المظلمة وأخذ يضرب الباب حتى هشمه . واجتذبت الضوضاء الجميع فجاءوا يركضون .

وقال أحد الرجال مخاطبا شيب :

ـ فلنوقظ جميع زنوج بوب واطسون هؤلاء لنرى ماذا يعرفون .

وازاحه شيب بعيدا متجاهلا الاقتراح . فقد استقر رأيه على أن يمضى مزيدا من الوقت داخل الحى . واندفع من الباب واضاء الغرفة بحركة سريعة شاملة من يده التى تمسك بالمصباح الكشاف . واضيئت ستة مصابيح كشافة أخرى ، بينما اندفع الآخرون داخل الغرفة .

ولم يكن فى الغرفة غير شخص واحد ، هو فتاة زنجية مضت تصرخ ، وهى تحاول أن تختبىء تحت الغطاء .

وأزاح شيب الغطاء . وجلت الفتاة وقلبها يدق في خوف .

وكانت صغيرة السن ، ذات لون فاتح . ووضعت قدميها تحتها وهى تبتعد الى طرف الفراش .

ومزق الرجال ثوب النوم من على جسدها والقوه جانبا . وأصدر أحد الأشخاص من فمه صفيرا للمنظر الذى رآه .

وسألها شيب وهو يقترب منها :

ـ أين رجلك ؟

فقالت هامسة بصوت متحشرج :

ـ انه هناك عند المستنقع يعمل فى ورشة نشر الأخشاب .

وكان يبدو أنها بين السادسة عشرة والسابعة عشرة • وكان جسدها نحيلا مستديرا •

وقال شيب يحذرها :

ـ من الأفضل لك ألا تكذبي على • كم مضى عليه من الوقت وهو فى الورشة ؟

فقالت وهى تجمع ذراعيها حول جسدها بقوة :

ـ كلا يا سيدى ، انني لا اكذب • لقد ظل يعمل هناك طوال هذا العام •

ـ ما اسمه ؟

ـ اموس جرين •

ـ الا يعود الى البيت أبدا •

ـ اجل ، يا سيدى ، انه يعود دائما كل ليلة سبت •

ـ أين يختبىء سونى كلارك ؟

ـ من ؟

ـ سونى كلارك • لقد سمعتنى فى المرة الأولى •

ـ انني بكل تأكيد لا أعلم شيئا عن سونى كلارك • ولم أره على الاطلاق •

فقال شيب فى غضب :

ـ انني لم اسألك ان كنت رأيته أيتها الزنجية • انني اسألك اين يوجد •

فاجابت بسرعة ، والخوف يكاد يخنقها :

ـ انني لا أعلم اين يوجد •

واستدار شيب متجها الى النافذة . وما ان ابتعد عن الفراش حتى ازداد اقتراب الرجال ، وهم يدفعون الفتاة الى منتصف الفراش .

وسألها أحد الأشخاص :

ـ هل توافقين على أن يغتصب الزنوج الفتيات البيض ؟

فقالت :

ـ لا ياسيدى ، انني لا أوافق على ذلك •

ـ أتريدين أن يقتل رجلك رميا بالرصاص اذا ما اغتصب فتاة بيضاء ؟

فتساءلت فى فزع :

ـ ان اموس لم يزج بنفسه فى أية متاعب ، أليس كذلك ؟

ونظرت فى توسل الى الوجوه الملتفة حول الفراش •

فقال الرجل وهو يخزها بطرف بندقيته :

ـ لماذا لا تجيبين على سؤالى ؟

فقالت هامسة :

ـ أجل يا سيدى ، انني لا أريد ذلك ؟

وومض فجأة ضوء فى مكان ما بالخارج • واندفع شيب نحو الباب وخرج• وجرى الآخرون •

وقال أحدهم :

ـ لقد شبت النار فى أحد الأماكن هنا !

ورأوا عندما خرجوا من الغرفة ألسنة اللهب تتصاعد من بيت الدجاج خلف الكوخ الواقع عبر الطريق • وجرى بعضهم اليه محاولين أن ينتزعوا الألواح الخشبية المشتعلة ويلقوها على الأرض • وكانت النار قد أخذت فى ذلك الحين تشتعل بدرجة لم يعد من الممكن معها السيطرة عليها • وانسحب معظم الرجال ووقفوا يراقبون بيت الدجاج وهو يحترق وينهار على الأرض • ودار ثلاثة أو أربعة من الرجال حول الكوخ ، وخطوا داخل المسكن الواقع عبر الطريق حيث تركوا الفتاة منذ بضع دقائق • وتسللوا الى الداخل واغلقوا الباب دون احداث أى صوت • ولم ينتبه لغيابهم احد •

وتساءل شيب وهو يسير فى الطريق :

- من أشعل تلك النار ؟

ولم يتلق اى جواب .

وقال بغضب :

- انكم لم تتمكنوا من القـــاء القبض على احد الزنوج وانتم تنطلقون مشعلين النيران . فسوف يحمله هذا على الفرار باسرع من أى شيء آخر ليجد لنفسه مخبئا . ويجدر بمن فعل هذا ان يفكر بشكل أفضل .

وسار مبتعدا وهو يشعر بالاشمئزاز . واخذ الرجال يرقبون بيت الدجاج وهو يحترق حتى انهار على الارض . وعندما خمدت آخر شعلة من النيران ، تحرك الرجال الى الطريق خلف شيب . ولم يفه احد بشيء حتى ابتعدوا عن حى الزنوج بمسافة طويلة .

وقال أحد الرجال :

- لقـد حان الوقت لمطاردة أحد الزنوج مرة أخرى . فقد كنت منـذ اسبوع فى احد المتاجر فى أندروجونز ، ولتصبنى اللعنة اذا لم يكن قـد دخل الى المتجر جلف زنجى وفى جيبه من النقود اكثر مما دخل جيبى طوال الصيف الماضى ، واحسست وانا ارى زنجيا مثله افضل حالا منى . هذه هى مشكلتهم هذه الأيام . انهم يتناولون اجور مساوية لنا ، بل تزيد احيانا عما يتقاضاه البيض . فليذهبوا الى الجحيم ، هذه بلاد الرجل الأبيض ! اننى لا أسمح أن يكسب زنجى نقودا اكثر منى دون ان افعل شيئا ازاء ذلك . ليس هذا بالأمر السار .

وقال صوت ارتفع من خلف الحشد :

- وقع على الالتماس الخاص بالزنوج . فهـــذه هى الوسيلة السليمة للتخلص من الزنوج .

وقال الرجل الأول بصوت مرتفع :

- اننى لا أحبذ هذا العمل الأحمق . وافضـــل وسيلة هى ماقلته ، أن نشنق أحدهم بين الحين والآخر . فسيحملهم هذا على التزام حدودهم . وسوف أشعر بالضياع اذا لم يوجد زنوج فى البلاد .

واضاف وهو يستدير صائحا :

- والى جانب ذلك ، فمن الذى سيقوم بكل العمل اذا ما أبعدنا الزنوج عن هنا ؟

ولم يتلق أى جواب على الحجج التى ساقها . وسار الرجال فى صمت وهم يتساءلون بينهم وبين أنفسهم عما ستكون عليه حال بلاد لا يوجـد فيها اى زنوج يقومون بالعمل الشاق . ولم يجرؤ أحـد على مناقشة هذا الاحتمال الذى يستبعد حدوثه .

وعلى بعد ميل من حى الزنوج ، توقف شيب والرجال الثلاثة او الأربعة الذين يتقدمون الموكب فجاة عن السير .

فقد كان بوب واطسون يقف هناك ، ولم يشك أحد في أنه هو نفسه، ممسكا فى يده بندقية مصوبة اليهم . وكان سطح البندقية المعدنى يلمع فى ضوء القمر مرسلا نذيرا يدركه كل منهم . ولم يتحرك احد . وتقدم بوب واطسون بضع خطوات .

وقال متحدثا فى بطء من مكانه خلف البندقية :

- اعتقد أن أحدا لم يصدق ما قلته . لقد قلت اننى ساطلق النار على أول رجل يأتى الى أرضى بحثا عن سونى كلارك . ولست ابالغ فى القول . فلن اسمح بأن يشنق أحد عمالى الزراعيين طالما كان فى امكانى الحيلولة دون ذلك . اننى لا أعرفكم جميعا أيها الرجال ، ولكننى أستطيع ان ارى بعض من أعرفهم . واعتقد أن ما يقرب من نصفكم يستأجرون منى ارضا ويشاركون فى الزراعة . وهذا يعنى أن النصف الآخر ليست لهم آية مصالح تاتى بهم الى أرضى . ولكن ليس فى هذا القول ان تبرير للباقين .

وتكلم أحد الأشخاص من بين الجمع .

- لقد اغتصبت فتاة بيضاء يامستر بوب . ونحن لانسمح للزنوج بان ينطلقوا فى البلاد مرتكبين هذه الأعمال . ان امرهم يجب أن يعالج .

وقال بوب بسرعة :

- ان الشريف يتناول مرتبه من اجل ان يقوم باعتقال من يخرجون على القانون . ولا حق لأحد آخر فى ان ياتى الى ارضى .

وقال احد الرجال :

- يا للجحيم ! ان جيف ماكيرتن لا يريد ان يخسر أصوات الناخبين بالتدخل فى مطاردة هذا الزنجى . انه أعقل من أن يفعل هذا .

وتحرك بوب واطسون الى جانب الطريق وهو لا يزال مصوبا بندقيته نحو الرجال . وقال :

- ساعطى كل شخص فرصة لمغادرة ارضى . ان هذه البندقية تطلق ست رصاصات . ساعطى كل شخص الفرصة لأن يتسلق هذا السور ويتجه الى الطريق الرئيسى ، وبعد ذلك سأبدأ فى اطلاق النار . ولكننى أحـذركم لو اننى امسكت مرة اخرى بأحد يبحث عن ذلك الفتى فسوف أطلق النار بمجرد رؤيته . ولن أميز بين الذين يعملون لحسابى والذين لا يعملون لحسابى . ما رأيك فى هذا يا شيب ؟

فقال بوداعة ، وهو يقوم بحركة جانبية متجها نحو السور :

- أجل يا سيدى مستر بوب . اننى اعرف ما تعنيه .

وتفرق افراد الحشد ، مندفعين بعيدا عن الطريق وهم يقفزون فوق السور ويسقطون عليه . وعندما وصل آخرهم الى الجانب الآخر من السور ، أفرغ بوب واطسون رصاص بندقيته فى الهواء . وبينما هو يتناول من جيبه ملء يده من الرصاص يحشو به بندقيته ، كان يستطيع أن يسمع عشرات الأقدام وهى تسير عبر الحقل . ووقف فى الطريق ممسكا تحت ذراعه بالبندقية المحشوة بالرصاص ، الى ان تلاشت الأصوات على البعد .

الفصل الثالث عشر

عندما أشرق الفجر ، كان الشريف جيف ماكيرتن غائصا حتى ركبته فى الحشائش الغزيرة وبطنه تضرب فيها .

وكانت المنطقة الريفية ذات المنظر الغريب التى تحيط به يسودها الهدوء والسكون . وكان نقيق الضفادع يرتفع من الأرض الرطبة وينتشر بلا هدف فوق الحقول الجرداء . وبينما جيف يقف محملقا فى الفجر ، كان طائر النقار ذو الذيل الطويل قد بدأ ينقر فى جذل شجرة جميز ميتة خالية من الأوراق .

وتلفت جيف حوله وهو يتساءل أين هو . وكان هو وبرت قد سارا مسافة طويلة فى أرض غريبة فيما بين منتصف الليل والفجر ، ولكنه احس للمرة الأولى بأنه ضل الطريق . وهرش رأسه وهو يتساءل عما اذا كان لا يزال فى مقاطعة جولى ، أو أنه عبر الحدود المقاطعة بطريق الخطأ فى احدى ساعات الليل .

ورأى برت قادما نحوه عند ركن كوخ قديم فى فناء المخزن . وكان برت يبدو غائر العينين منهكا ، وقبعته معلقة فى مؤخرة رأسه وكتفاه محنيتان فى يأس .

وصاح فى عجز :

- فى اي مكان فى العالم نحن يا برت ؟ اننى لا أذكر اننى رأيت هذه الأرض الخربة من قبل فى حياتى .

فقال برت فى اعياء :

- اننا لانبعد عن المدينة بأكثر من اثنى عشر ميلا . هذه أرض فرانك ترنر القديمة .

وخاض برت فى الحشائش متجها نحوه . وأحس جيف ببعض التحسن

بعد أن علم أنه يملك سلطة قانونية على الأرض التى يقف فيها . وكان فى مطلع حياته السياسية يتعرض أثناء نومه لكوابيس يجد نفسه يتخبط عاجزا فى احدى مقاطعات الولاية فى الوقت الذى ترتكب فيه على نطاق واسع أمام عينيه جرائم القتل واحراق الممتلكات والاغتصاب . ولهذا السبب فانه لم يضع قدمه خارج مقاطعة جولى طوال احد عشر عاما .

وقال برت :

ـ لست أعتقد ان سام برنسون قد جاء الى هنـــا ، يا شريف جيف . ولا أعتقد ان انسانا قد وضع قدمه فى هذه الأرض لمدة ست سنوات .

ونظر كل منهما الى الآخر فى عجز .

وقال جيف مخاطبا نفسه بصوت مرتفع :

ـ اننى لأتساءل عما يكون قد حدث لسام .

وقال برت مقترحا :

ـ لعلهم أطلقوا سراحه فى أحد الأماكن ، وقد بلغ به الفزع حدا جعله يخشى الخروج من مخبئه . واذا كانوا قـــد تعبوا من اصطحابه معهم ، فقـــد يكونون قد أطلقوا سراحه ، أو قد يكونون ...

وتساءل جيف بسرعة :

ـ أو قد يكونون ماذا ؟

ـ حسنا ، قد يكونون قد اقدموا على ما قالوا انهم سيفعلونه .

فقال جيف مؤكدا :

ـ لا ، لن يفعلوا هذا بسام . ربما لاى زنجى آخر ، ولكن ليس لسام.

واستدار برت وأخذ يخوض فى الحشائش متجها نحو البيت المهدم .

وكانا قد تركا السيارة فى مكان ما امام البيت عندما قدما فى الظلام .

ووجـد جيف صعوبة فى شق طريقه بين الحشـائش الكثيفة ، ولكنه بذل كل جهده مقتفيا أثر برت . وعندما كاد يصل الى الكوخ سمع شخصا يصيح قريبا منه . فتوقف وارهف السمع ، وقد تجدد امله . قد يكون هذا سام يناديه .

وكان برت قد وصل الى الكوخ ، ولكنه بدأ يعود . وقال مخاطبا جيف :

ـ انه جيم كوتش .

واتجه جيف الى جانب الكوخ ، واستند اليه فى اعياء .

وكان فى استطاعته أن يسمع حفيف الحشائش وبرت وجيم يشقان طريقهما خلالها . ولكنه لم يرفع بصره اليهما .

وقال جيم بانفاس لاهثة :

ـ صباح الخير يا شريف جيف . انه يوم جميل ، أليس كذلك ؟

ولم يجب جيف ، فقد كان يريد أن يريح ذهنه بضع لحظات قبل أن يستمع الى ما يريد جيم أن يقوله . وكان يعلم أنه لو كان لدى جيم اخبار طيبة لكان قد افضى بها بصوت مرتفع قبل ذلك .

وبدأ جيم يتكلم :

ـ لقد ظللت منذ الليلة الماضية أبحث عنك انت وبرت فى كل انحاء مقاطعة جولى . واعتقد اننى سألت عددا من الناس يتراوح بين مائتين وثلاثمائة ان كانوا قد رأوكما . ولم أكن لأجدكما هنا على الاطلاق لولا سيارتك الواقفة هنا امام المنزل .

وغاص قلب جيف . واغلق عينيه لحظة يقضيها فى سلام .

واخيرا تساءل وهو يفتح عينيه :

ـ ما هى المشكلة يا جيم ؟

ـ القاضى بن الان ..

وتأوه جيف ، وقال وهو يخفض صوته :

ـ كنت اعلم هذا ، كنت أخشى حدوث هذا طوال الليل .

وقال جيم بسرعة :

ـ لقد تشاجر القاضى بن الان مع مسز نارسيسا كالهون حول ذلك الالتماس . وقد اخذه منها ومزقه اربا ، وقال لها انه سيعمل على اعتقالها بتهمة اثارة الشغب اذا ما حاولت أن تعد التماسا آخر .

ورفع جيف عينيه فى امل ، وقد هبط فكه الأسفل .

ـ وبعد ذلك اتصل بنا ، وطلب منى ان اجدك فى الحال ، واخبرك انه يريد اعتقال سونى كلارك والاحتفاظ به فى السجن سالما بكل شعرة فى جسده .

وتهاوى جيف معتمدا على جدار الكوخ ويداه تتحسسان الألواح الخشبية الخشنة التى ابلاها الجو لكى يستند اليها . وكان منظره يثير الشفقة مثل عجل رضيع فى الشهر الأول من عمره يتخبط فى سور من الأسلاك الشائكة .

وقال بروح معذبة متدهورة :

ـ أيها الأولاد ، اننى لم اشعر فى حياتى من قبل اننى على هذا القدر من التعب . لقد ظللت طول الليل اجوب أنحاء مقاطعة جولى محاولا البحث عن سام برنسون ، والآن يأتى القاضى بن الان مغيرا رأيه مرة أخرى ويقول لى انه يريد منى أن أهمل كل شىء آخر واعتقل ذلك الزنجى كلارك . انها سيسى كالهون التى تسببت فى كل هذه المتاعب . لو وقعت عليها عيناى مرة اخرى لطاردتها حتى ينال منها الانهاك الى حد تتمنى معه لو أنها لم تولد .

وهبط ببطء وهو يستند الى جدار الكوخ حتى ارتطم جسده بالأرض .

وقفز برت وجيم الى الأمام محاولين انقاذه من السقوط ، ولكنهما لم يتمكنا من الوصول اليه فى الوقت المناسب .

واستعاد ذكرى أجمل احساس مر به فى حياته . كان ذلك فى أشد أيام الصيف حرارة ، وكان يراقب سام برنسون وهو يقوم باصلاح سيارة قديمة فى ضوء الشمس . وكان سام يطرق السيارة القديمة الصدئة فى الوقت الذى كان هو يستند فيه الى جذع شجرة بلوط ذات افرع طويلة قائمة على ضفة جدول لوردنر ويصطاد سمك اللوت المنقط . وكان استلقاؤه هناك فى الظل ، والطين البارد الناعم الملمس يتسرب من بين أصابع قدميه ، وسماع جيم وهو يطرق السيارة القديمة ، أمرا رائعا الى حد انه يكاد الا يكون حقيقيا . وكان يستعمل فى الصيد الديدان والفلين ، وبدأت الفلينة تهتز . وأخذت يراقب التموجات تنداح على سطح الماء منتظرا أن تهبط الفلينة تحت

سطح الماء مرتين . ودون أن يرفع عينيه عن الفلينة باعد ما بين قدميه ، وأصابع القدمين تزدادان غوصا فى الطين البارد . واستعد بعد ذلك ليجذب الشص فى اللحظة التى يحس فيها بالشد للمرة الثالثة . وكان قد تنقل هنا وهناك ليصطاد ست سمكات أو ثمانية من سمك اللوت الذى تبلغ الواحدة منه حجم الانسان كى يحملها معه الى البيت فتشويها كورا وتعد منها وجبة مع حبوب القمح . وفجأة غاصت الفلينة تحت سطح الماء للمرة الثالثة ، واخذ يجذب الشص بكل قوته . وتزعزت قدماه من مستقرهما فى الطين ، وهوى منحدرا على الضفة الزلقة حتى وصل الى الماء . واخذ الشص يبتعد عنه نحوما فوق سطح الماء .

وفتح عينيه ليرى برت وجيم واقفين أمامه يحركان الهواء فوق وجهه بأقصى قوتهما . وأغلق عينيه سريعا وهو يتساءل عما يدعوه الى كراهية صيد السمك على هذه الصورة اذا كان كله على هذا المنوال .

وكان برت يقول :

ـ هون عليك يا شريف جيف . هون عليك يا شريف جيف . سوف تصبح فى أحسن حال بعد برهة . هون عليك يا شريف جيف .

فقال وهو يوجه اليهما نظرة غريبة :

أيها الأولاد ، لقد صدت أكبر واحدة وقع عليها بصركما فى حياتكما .

فقال برت وهو يحرك الهواء بقوة أكبر ناظرا الى جيم كوتش :

ـ هون عليك يا شريف جيف .

ـ لقد صدت بعض الأسماك التى تزن الواحدة منها ما بين ثمانية ارطال وعشرة ، ولكننى القيت بها فى الماء مرة أخرى لأنها كانت أصغر مما اريد . وينص القانون على أن يعـاد الى الماء السمك الذى يقل طوله عن ست بوصات ، ولكن ماكيرتن لم يصطد أبدا سمكا يقل طوله من الرأس حتى الذيل عن ...

وجلس ناظرا عبر الأعشاب النامية .

وصاح :

- أين سام ؟ الى أين ذهب سام ؟

وقال برت محاولا ان يطمئنه :

- كل شيء على ما يرام يا شريف جيف . لا يوجد ما يدعو الى العجلة . هون عليك لحظة .

ولم يتحدث أحد برهة من الزمن . واخذ برت وجيم يراقبانه وهما يحركان الهواء طول الوقت . وارتفعت الشمس فوق رءوس الأشجار عبر الحقول الجرداء وسقطت اشعتها على وجه جيف . ورفع بصره وعيناه تحملقان فى الضوء القوى .

وقال فى خجل :

- لابد أن شيئا أصابنى . فالجميع يعلمون اننى لا أحب صيد السمك على الاطلاق .

وقال برت :

- هذا صحيح يا شريف جيف . فانا وجيم لانصدق ذلك . اننا نعلم انك لاتحب صيد السمك .

وجلس برهة فى هـدوء ، ثم طلب من برت وجيم أن يعـاوناه على النهوض . ونهض على قدميه ثم سار مترنحا وهو يخترق الأعشاب الطويلة متجها الى السيارة مزيحا سيقان الأعشاب بيديه .

وقال وهو يبعد برت وجيم عنه عندما حاولا معاونته على ارتقاء السيارة :

- اننى فى حالة طيبة الآن . سأكون فى أحسن حال لو اننى لم أجعل من نفسى انسانا أحمق .

وتبعاه على مقربة حتى يستطيعا معاونته اذا ما تعثر فى الأرض الوعرة . وفتحا له باب السيارة ووقفا خلفه منتظرين أن يقول لهما ماذا يفعلان

وقال وهو يستريح فى مقعده :

- اننى أؤدى واجبى كما أراه . فاذا أراد القاضى بن الان زنجيا ميتا فسأجده له . أما اذا كان يريد رجلا على قيد الحياة فما عليه الا أن ينتظر

حتى أعلم أولاماذا حدث لسام)والافعليه أن يخرج هو ليقبض عليه نفسه. فالمدافن ملأى بالسياسيين الذى لم يتبعوا صوت عامة الناس ، ولست أسعى الى ان أحمل الى هناك قبل الأوان .

وتساءل جيم :

- هل تعنى اننا لن نبحث عن سونى كلارك ؟

فقال :

- هذا هو ما أعنيه بالتحديد يابنى . اننى لن أنطلق كالأحمق مرة فى اتجاه ومرة أخرى فى اتجاه آخر . فاذا كان القاضى بن الان غير قادر على التوصل الى رأى يستقر عليه ، ففى هذا علامة على انه ليس متأكدا تماما من ارادة عامة الناس . وهـذا كل ما أريد أن أعرفه . سوف أظل خارج الأسوار حتى أتأكد من اننى سوف أهبط فوق أرض صلبة عندما أقفز . وفى نفس الوقت سوف تستمر عيناى مفتوحتين بحثا عن سام برنسون . وسأظل أبحث عنه حتى يوم القيامة اذا اقتضى الأمر .

فتساءل برت وهو يأمل أن يتوقف البحث وقتا يكفى لأن يتناولوا طعام الافطار فى أحد الأماكن :

- هل سنبدأ بعد فترة البحث عن سام مرة أخرى ؟

فقال جيف بحزم وهو يضرب نافذة السيارة بيده :

- لا . لا . سنبدأ البحث الآن .

وأشار الى الاتجاه الذى يرغب فى السير فيه فأدار برت السيارة . وانطلقا فى اتجاه نيدمور يتبعهما جيم فى السيارة الأخرى .

وبعد أن ساروا فى الطريق مسافة ميل وصلوا الى منزل مكون من ثلاث غرف يقع عند طرف أحد حقول القطن . وكان هناك صندوق بريد مثبت فى سارية من خشب الجوز مقامة أمام البيت . ووقف ، مستندا الى السارية ، رجل يرتدى سترة عمل مرقعة ، وهو يرقب السيارتين أثناء دنوهما منه .

وقال جيف وهو يلكز برت بين ضلوعه :

- خفف السرعة يا برت . فقد يعلم هذا الصعلوك أين ذهب سام . اوقف السيارة .

وتوقفت السيارة على بعد بضعة اقدام من الفلاح . ونظر اليهم الرجل فى ارتياب وهو يجذب فوق جبهته قبعته المصنوعة من القش التى لوحتها الشمس .

وقال جيف يحييه وهو يطل من نافذة السيارة ويرسم على وجهه ابتسامة :

- كيف حالك ؟

واجاب الرجل :

- كيف حالك ؟

ونظر كل منهما الى الآخر بامعان ، وكل منهما ينتظر من الآخر أن يتحدث أولا . وأدرك جيف بعد لحظات أن عليه هو أن يبدأ الحديث .

وقال :

- لقد أصبح الجو حارا فى الفترة الأخيرة ، أليس كذلك ؟

- أعتقد ذلك .

- وكيف حال زوجتك والأطفال ؟

- فى أحسن حال .

- ألم تجمع المحصول بعد ؟

- ليس بعد .

- هل تعمل على أن تحصل من الحكومة على سلفة على القطن هذا الموسم ؟

- لم أصل الى رأى بعد .

- هل أصيب محصولك بدودة القطن اصابة خطيرة ؟

- ليست خطيرة .

- الجو حار ، أليس كذلك ؟

- اجل .

واخذ كل من الرجلين يتأمل الآخر فى ارتياب ، وكل منهما يحاول أن يخمن ما يدور فى ذهن الآخر . واخرج الفلاح سيكنة من جيبه ووجه عدة ضربات الى السارية التى تحمل صندوق البريد . واستنشق جيف نفسا طويلا عنيفا وهو يخرج رأسه من نافذة السيارة مسافة أكبر .

وقال بعد أن عجز عن منع نفسه من توجيه هذا السؤال فترة أطول من ذلك :

- لمن ستعطى صوتك فى الانتخابات القادمة ؟.

- اننى ديمقراطى .

- من الفريق الموالى للقاضى الآن أو الفريق المعادى له ؟

فقال الفلاح بحماس وهو يزيح القبعة عن جبهته ويبصق سيلا من عصارة التبغ على اطار السيارة الأمامى :

- اننى لست من الديمقراطيين الموالين لالان ، اذا كان هذا ما ترمى اليه .

وقال وهو يزيح قبعته الى الخلف ويبتسم للرجل الواقف بجوار السارية :

- سوف ارشح نفسى هذه المرة أيضا كالمعتاد . ولدى سجل حافل نظيف . فقد كرست أفضل سنين حياتى لاكون خادما لناخبى مقاطعة جولى . ولكننى رسمت لنفسى قاعدة صلبة سريعة هى الا أنصاع للرغبات السياسية لفريق الديمقراطيين الموالين لالان عندما يصبح الأمر متعلقا بالمحافظة على القانون ..

فتساءل الفلاح وهو يبصق على الاطار الأمامى ويرفع هامته :

- ما اسمك ؟

فقال جيف وقد أخذ :

ـ أنا ؟ أنا الشريف جيف ماكيرتن . كنت أظن ...

ـ لماذا لم تضع ذلك الزنجى فى السجن ؟

ونظر الى جيف شزرا باحدى عينيهوهو يمر بحدالسكين على كفه .

ـ أى زنجى ؟ اتعنى سام برتون ؟ لقد ...

ـ لست أعرف شخصيا بهذا الاسم . اننى أعنى سونى كلارك .

وابتلع جيف ريقه بصعوبة وهو ينظر الى برت . وبدأ يخشى أن يكون قد سبب لنفسه من الضرر ماهو أكبر من النفع بتوقفه هنا وانهماكه فى مناقشة سياسية .

ـ لماذا لم تتحرك وتقبض عليه قبل أن يصل اليه هؤلاء الغوغاء ؟

ـ كنت أعتقد ...

ـ انك تتناول مرتبا كبيرا من الأموال العامة ، اليس كذلك ؟

فقال جيف معترضا :

ـ انه ليس مبلغا كبيرا . انه ليس أكثر مما يكفى لاقامة الأود .

ـ انه أكبر مما أكسب أنا ، وانا اعرف الكثيرين الذين فى مثل حالى. ولدى المقاطعة زوج من الكلاب البوليسية كذلك . فاذا كنت راغبا فى القبض على ذلك الزنجى ، فكل ما عليك ان تفعله هو ان تطلق هذين الكلبين فى أثره . اليس الأمر كذلك ؟

وفتح جيف باب السيارة حتى يمر الهواء فى داخلها بشكل أفضل . وكانت حرارة الجو قد جعلت العرق يتصبب من جسمده وكأنه ماء ينز من قربة .

وقال جيف مدافعا عن نفسه :

ـ والآن ، فيما يتعلق بهذه الكلاب البوليسية ، انها لا تصل دائما الى نتائج سليمة كما يعتقد البعض . وعلى اية حال ، فهذا زنجى ذكى .

واعتقد انه سيختفى بعيدا عن فلورى برانش ، ولن تستطيع الكلاب البوليسية ابدا ان تتعقبه . وزيادة على ذلك فانها كثيرة النباح ، وفى هذا تحذير له فيفر بعيدا . وانا ارى ان افضل وسيلة للقبض عليه هى بتوجيه ضربات الى الشجيرات وبهذا يمكن الامساك به .

فقال الرجل باصرار :

ـ ولماذا لم تتبع هذه الوسيلة اذن ؟

ومر جيف بيده فوق وجهه بعصبيته . لقد أحس انه وقع فى مأزق لا يستطيع فيه أن يعالج الموقف . وجلس فى مكانه وهو يأمل الا يكون فى مقاطعة جولى كثيرون من الناخبين على شاكلة هذا الرجل المستند الى السارية التى تحمل صندوق البريد . وكان يعلم انه لا يستطيع ، حتى فى هذه المرحلة ، ان يتخذ موقفا علنيا ، سواء الى جانب الشنق أو ضده ، حتى يعلم فى اى اتجاه تهب الريح . وكان يخشى الانتخابات القادمة أسوأ مما يخشي الطاعون . وكان هذا أحد الاوقات التى يعلم انه لامفر له فيها من اتخاذ موقف الى هذا الجانب أو ذاك ، وكان يعرف جيدا ، معرفته باسمه ، أن فرص اعادة انتخابه لاتستحق أن يدور بشأنها أى نقاش اذا ما فشل فى أن يحدد بشكل سليم عواطف الناس . فى الماضى ، كان القاضى بن الان يستطيع دائما أن يحدد مقدما نتائج الانتخابات التمهيدية بمجرد اجراء بعض المساومات والاتفاقات مع المعارضة . ولكن جيف بدأ يتساءل الآن عما كان للقاضي بن الان من القوة مايكفى لان يتحكم فى اية انتخابات عندما تثار بشكل علنى ، للمرة الأولى فى تاريخ مقاطعة جولى ، قضية الشنق التى لم تحسم . وتمنى لو انه يتحلى بقدر من الادراك يجعله يتبع نصيحة زوجته عندما طلبت منه أن يذهب لصيد السمك ، وان يذهب الى هناك باسرع ما يمكنه .

وكان الرجل ذو السترة المرقعة يحملق فيه بقوة . وعض جيف شفته السفلى ، وهو يأمل الا يستمر الرجل فى الحاحه فى توجيه السؤال الذى لم يتلق عليه جوابا .

وقال جيف محاولا أن يبدو طبيعيا على قدر الامكان فى هذه الظروف:

ـ وبهذه المناسبة ، لا اعتقد انك رأيت الرجل الملون سام برنون ، اليس كذلك ؟

فضيق الفلاح عينيه ، وهو يثبت نظرته على اطار السيارة الامامى ، وكانه يصوب احدى البنادق ، ثم بصق على جانب الاطار دون ان يخطئه . وظهرت عند ركنى فمه خطوط خفيفة .

ـ من هو هذا ؟ انني لم أسمع به من قبل .

ـ ان سام يقيم فى الجانب الآخر من فلورى برانش ـ فى منتصف المسافة تقريبا بينها وبين اندروجونز .

وهز الرجل رأسه ببطء :

ـ لحساب من يعمل ؟

فقال جيف بلهجة فيها التماس العذر لسام :

ـ لا احد ، على وجه الدقة ، الا لحساب نفسه . انه من النوع المجنون بالسيارات القديمة التى تقع فى يديه بصورة أو بأخرى .

وقال الرجل وهو يقشر خشب السارية بسكينه :

ـ لم اسمع به من قبل . ولكن يخيل الى انه احد زنوج الجيتشى . وهذا النوع يقدم على اى شىء يبعده عن العمل فى الحقول مثل الزنوج العاديين .

وكان حماس جيف قد فتر الى حد انه لم يجد ما يدعو الى البقاء والاستمرار فى النقاش اكثر من ذلك . واشار الى برت اشارة تدل على انه يريد أن يرحل ، فأدار برت السيارة .

وقال جيف ، وهو يرفع صوته فوق ضجيج المحرك :

ـ اذا سمعت شيئا عن سام برنون ، فانني ساقدر لك صنيعك اذا ما جعلتني اعرف .

ولم يجب الفلاح بشىء . وادار عجينة التبغ بلسانه ليضعها بين فكيه الايسرين ، ولكن السيارة كانت قد ابتعدت قبل ان يتمكن من ان يبصق على الاطار مرة اخرى . وتركاه مستندا بكتفه الى السارية التى تحمل صندوق البريد .

وكانا قد سارا ما يقرب من ميل قبل ان يتكلم جيف . وقال بحزن:

ـ اعتقد انني فقدت هذا الصوت الى الابد . وكيف اعلم انه يعطف على زنوج الجيتشى ، وانه بالاضافة الى ذلك ليس من بين الديمقراطيين الموالين لالان ؟

وتوقف عن الحديث وهو يوجه الى الحقول نظرة استياء :

ـ توجد بطبيعة الحال مخلوقات غريبة ، وعلى السياسى الا يعول عليها .

وكان الطريق الذي يدرجون فيه يمتد ناحية الشمال والجنوب مخترقا القاطعة عند الحدود الشرقية . وكان السير فى هذا الطريق ناحية الشمال لا يقربهم من اندروجونز ، التى تقع على بعد خمسة عشر ميلا ناحية الغرب من مكانهم ، وانما من ايرنشوريدج .

ومروا فى طريقهم أثناء عشرين الدقيقة التالية بستة أو أكثر من اكواخ الزنوج التى بدت مهجورة . وفى فناء احد الاكواخ كانت هناك ملابس مغسولة منشورة على الحبال ، ولكن المسكن بدا وكانه هجر على عجل فى بضع دقائق . فمصاريع النوافذ الخشبية مغلقة مثبتة بالمزاليج ، ولكن الباب الامامى مفتوح على سعته .

وقال جيف مشيرا امامه :

ـ اتجه الى نيدمور يابرت . انني اريد أن اسال عن سام . اذ يبدو معقولا الآن انه فى أحد الاماكن ، اليس كذلك . ولا يمكن أن تكون قد ابتلعته حفرة فى الارض دون ان يخلف أثرا .

وكانوا فى يوم السبت ، ومن المعتاد فى مثل هذا اليوم ان تكون

الطرق مزدحمة ، حتى فى تلك الساعة المبكرة ، بالزنوج الراجلين أو الذين يمتطون ظهور البغال ، أو يقودون سياراتهم القديمة . ولكن لم يبد أى زنجى فى اى مكان .

وحتى فى نيدمور ، لم يبد أى زنجى .

وكانت نيدمور نجعا يقع عند مفترق الطرق ، لا يبلغ من الكبر الحد الذى يسمح باطلاق اسم خاص عليه ، وعند كل من الركنين ، يوجد متجران عامان ، لكل منهما واجهة خشبية مرتفعة . والى جوار احد المتجرين ، توجد مضخة بنزين مرتفعة حمراء اللون . وفيما عدا حفنة من الاكواخ المتناثرة غير المطلية التى يسكنها البيض ، لم يكن يوجد فى النجع أى شيء آخر . وقد اكتسب هذا المكان اسمه من الزنوج الذين يذهبون اليه لابتياع ما يحتاجون اليه ، وكان يقال لهم عادة عندما يرغبون فى شراء اية سلعة انهم فى حاجة الى مزيد من النقود .

(كلمة نيدمور معناها فى حاجة الى مزيد)

وابطأ برت السيارة ، ثم توقف أمام المتجر الذى تقع بجواره مضخة البنزين . ووقف جيم بسيارته بجانبهم فى نفس الوقت تقريبا .

وحملق جيف فى الارض الرملية الجرداء المحيطة بالمتجرين وهو لا يستطيع أن يتخلص من الجزع . واحس بالتعب الى حد انه لم يستطع مغادرة السيارة . فارسل برت ليأتى له بزجاجة من الكوكاكولا .

الفصل الرابع عشر

كان هارفى جين ، وهو مزارع شاب يعمل فى زراعة القطن ويقيم فوق قمة ايرنشوريدج ، يسير فى الطريق مغادرا منزله بعد ان تناول طعام الافطار هذا الصباح ، وهو يلوك فى ركن فمه شظية خشب مما يستعمل فى تنظيف الاسنان ، عندما رأى رأس زنجى ذات شعر مفلفل تطل من احد ادغال الاعشاب الكثيفة . وتوقف هارفى عن السير والقى بشظية الخشب بعيدا واخذ يتلفت حوله بحثا عن حجر .

وبينما هو يبحث عن حجر بالحجم الذى يريده ، اهتزت الاعشاب التى يصل ارتفاعها الى خصر الانسان قليلا . ولم يعد البصر يقع على الرأس ذات الشعر المفلفل .

وتراجع هارفى الى الخلف وهو يتلفت حوله باحثا عن حجر من اى حجم .

وكان هارفى فى الليلة الماضية ، عندما انتشر نبأ مطاردة الزنجى فى كل أنحاء المنطقة ، قد زهب الى الفراش مع زوجته كالمعتاد . وقد خرج نصف الرجال على الأقل فى هذا الجانب من مقاطعة جولى للاشتراك فى المطاردة ، ولكنه أخبر زوجته ، التى كانت على أية حال تخاف ان يتركها بمفردها بالمنزل ، ان احدا لا يملك حدة البصر التى تمكنه من القبض على زنجى فى الظلام ، وانه لن يضيع وقته فى البحث عنه .

وما ان تناول طعام افطاره ذلك الصباح حتى وضع قبعته على رأسه

واخذ يهبط المنحدر . وكان فى منتصف المسافة بين بيتـــه وبين قاعدة المنحدر عندما وجه بصره الى احد الجانبين ورأى الاعشاب تهتز .

وصاح وهو ينحنى على الارض ملتقطا حجرا فى حجم طوبة البناء :

ـ أهذا أنت يا سونى ؟

واهتزت الاعشاب بعنف ولكنه لم يتلق جوابا .

فقال رافعا صوته :

ـ لقد سمعتنى يا سونى ..

وخيل اليه انه سمع صوتا خافتا . وكان الصوت يشبه تأوها انتهى بنشيج .

فصاح وهو يدير رأسه :

ـ ماذا يجرى هناك ؟

وخطا هارفى عدة خطوات نحو الاعشاب ، ثم توقف وهو يرفع قامتـه فوق أطراف أصابع قدميه محاولا أن يرى ان كان سونى كلارك هو حقيقة الذى يختبىء هناك . ولم يكن يريد أن يجازف كثيرا حتى يتـأكد من انه سونى ، فقد ترك بندقيته مع زوجته لتحمى بها نفسها .

وقال بصبر نافد :

ـ من الأفضل لك أن تجيبنى يا سونى .

ولم ير أية حركة بين الأعشاب ، واختفت تماما عن البصر الرأس ذات الشعر المفلفل .

وقال آمرا وهو يقترب :

ـ انهض على قدميك يا سونى ! انهض ودعنى اراك والا فاننى سالقى عليك هذا الحجر فى الحال !

وارتفعت رأس سونى فوق الاعشاب وكأنها سلحفاة تخرج فى اعيـــاء من قوقعتها . وكانت عيناه تزدادان اتساعا وهو ينهض على قدميه .

وقال سونى :

ـ كيف حالك يا مستر هارفى . كيف أنت اليوم ؟

وشق هارفى طريقة بين الاعشاب متجهـا نحـو الصبى ، ثم توقف محملقا فيه عندما اصبح على بعد اقدام قليلة منه .

وقال بخشونة وهو يتحرك فى دائرة ليرى ان كان سونى يحمل سلاحا من أى نوع :

ـ ماذا تفعل فى حقلى أيها الزنجى ؟

ودار جسم سونى وكأنه يتحرك حول محور ، وعيناه المســـتديرتان المتسعتان تتبعان كل حركة من قدمى هارفى .

وتساءل سونى وصوته يرتفع فى دهشه :

ـ أهذا حقلك يا مستر هارفى ؟ اننى اعترف يا مســـتر هارفى اننى لم اكن اعلم انك تمتلك هذا الحقل . وقد حسبت ان احـــدا لا يمتلكه ، لأنه بسبب وجود كل هذه الحشائش هنا . . .

فقال هارفى بفتور :

ـ ان جميع الأرض يمتلكها هذا الشخص أو ذاك .

فقال سونى بصوت غامض :

ـ هل هذا صحيح ؟ لم اكن اعرف هذا من قبل يا مستر هارفى .

فقال بسرعة وهو يتوقف مواجها الصبى :

ـ لقد علمت ذلك الآن . وماذا تفعل باختبائك فيه على هذه الصورة؟

ـ أجل يا سيدى مستر هارفى ، اننى اعلم الآن من يمتلكه .

ثم توقف عن الحديث ناظرا الى الحشائش ، واستانف قائلا :

ـ اننى لا اعرف كيف وجدت نفسى هنا .

ـ ولماذا لاتمارس عملك هناك في الارض ؟ الست احد عمال مستر بوب واطسون الزراعيين ؟

فقال سونى فى لهفة :

ـ أجل ، يا سيدى . اننى اقيم فى أرض مستر بوب .

وتلفت حوله يفحص الارض بعينيه . واستطرد :

ـ اننى لا احس بالرغبة فى العمل اليوم . فلست فى حالة طيبة يا مستر هارفى .

والقى هارفى الحجر من يده وتقدم الى دائرة الاعشاب التى وطئتها اقدام سونى فى المكان الذى كان يختبىء فيه . وبدا له كان سونى ظل فى هذا المكان فترة طويلة ، قد تكون طول الليل . وتراجع الفتى الى الخلف عدة خطوات ، وعيناه اللتان تدوران بسرعة فى محجريهما تلقيان نظرة خاطفة على الجانب الاكبر من الافق .

وساله هارفى :

ـ ماذا يجعلك تحس بعدم الرغبة فى العمل ؟ انك لم تقع فى أية متاعب من اى نوع ، اليس كذلك؟

وتقلص وجه سونى . وابتلع ريقه بصعوبة . ودس يديه فى جيبى ردائه البالى .

وقال منفعلا :

ـ اننى لم ارتكب اى خطأ يا مستر هارفى . اننى اعلن هذا .

فساله هارفى بسرعة :

ـ وماذا عن حادث الاغتصاب ؟ الا تسمى هذا خطأ ؟

وانقلبت سحنة سونى وقال :

ـ أتعلم هذا الأمر يا مستر هارفى ؟

ـ اننى اعلمه طبعا . كل انسان فى مقاطعة جولى يعرفه . كل شخص فى المنطقة يعرفه الآن بعد ان قرءوا عنه فى الصحف .

فقال سونى مكررا قوله :

ـ الصحف ؟ هل نشروه فى الصحف ؟

فاومأ هارفى برأسه وهو يراقب الصبى .

ـ اننى لم افعل مثل هذا الأمر يا مستر هارفى .

وانحنى هارفى والتقط قبضة من الحشائش ، وفركها بين يديه حتى خرجت البذور من اغلفتها وتساقطت من بين أصابعه . ثم القى بكومة الحشائش جانبا ونظر الى سونى .

وأخيرا قال :

ـ لقد فعلت شيئا ، ماذا تسميه اذن ؟

فقال بلهفة وهو يخطو الى الامام ويكاد يتعثر فى عجلته :

ـ اننى لم افعل ذلك الشىء الذى قلته يا مستر هارفى . اننى لا أعلم شيئا عن ذلك الأمر الذى ذكرته . اننى لم افعل مثل هذا الشىء من قبل طوال حياتى يا مستر هارفى . اننى لم أفعله ، هذا كل ما فى الأمر .

ـ لقد قالت مسز نارسيسا كالهون انك فعـلت ذلك . وهى امرأة بيضاء . انك لن تقول عن امرأة بيضاء انها كاذبة ، أليس كذلك ؟

فقال معترضا :

ـ لا ياسيدى مستر هارفى . اننى لا اقول هذا بكل تأكيد . ولكننى لم افعل شيئا مشينا على الاطلاق يا مستر هارفى .

ـ لقد قالت انها رأتك هى والواعظ فيلتز تفعل ذلك . وقالت ابنة مستر شيب بارلوهى الاخرى انك فعلت ذلك . انك لن تسميهم جميعـا كاذبين ، أليس كذلك ؟

ـ اننى لااسميهم كاذبين يامستر هارفى . اننى لاأجادل فيما يقوله البيض على الاطلاق . ولكننى لم افعل شيئا كهذا لمس كيتى أو لاى شخص آخر يا مستر هارفى .

وكان سونى يدور فى دائرة ، وهو يتعثر ثم يسـتعيد توازنه فى كل خطوة يخطوها تقريبا . وكان يقفز فى خطوات سريعة عصبية محاولا اقناع هارفى ببراءته . ووقف هارفى صامتا ينظر بامعان الى وجه الصبى المتوتر فى كل مرة يمر فيها امامه .

ـ لقد اخبرتك بالصدق يا مستر هارفى عندما اخبـرتك بذلك . ولم افعل شيئا كذلك مع الفتيات الملونات . اننى لا اعرف شيئا عن ذلك يا مستر هارفى .

وراقبه هارفى بامعان . ولم يستطع ان يبعد عن ذهنه ما تملـكه من اعتقاد فى جدية الصبى الزنجى.

وتساءل :

ـ وماهذا الذى تقوله عن الفتيات الملونات كذلك ؟ ألم يكن لك شأن مع أى منهن أيضا ؟

ـ كلا يا سيدى مستر هارفى . وهذا هو الصدق . لقـد سمعت مايقال عن ذلك ، ولكننى لاأعـرف عنـه شيئا . اننى لاأكذب عليـك يا مستر هارفى .

وادار هارفى ظهره للصبى وسار فى اتجاه الطريق الذى يبعد مايقرب من عشر ياردات . وعندما وصل الى الارض الرملية الجرداء توقف ونظر الى الارض والى قمم الاشجار الواقعة فى قاع المنحدر ، فخلف ذلك تقع الاراضى المنبسطة التى تقطعها الشايات التى تفصل الحقول المزروعـة عن بعضها البعض . وتساءل أين يوجد الرجال المتجمعون . انه لم يسمعهم منذ المساء عندما كان هناك صياح كثير فى قاع المنحدر .

واستدار ناظرا الى سونى الذى كان يقف بين الاعشاب التى يصـل ارتفاعها الى خصره . وكان الصبى واقفا فى نفس المكان الذى تركه فيه. ولم يبد أى علامة على الفرار . وعاد هارفى الى المكان الذى يقف فيه .

ـ وماذا تنوى أن تفعل يا مستر هارفى ؟

فقال :

ـ لست أدرى .

وخيل لهارفى انه لمح حركة تحت قميص سونى . واقترب منه .

ـ ما هذا الذى تخفيه ؟

وفك سونى أزرار قميصه وادخل يده واخرج الارنب .

ـ من أين حصلت على هذا الارنب ؟

فقال مرتبا اذنى الارنب :

ـ انه احد ارانبى . لقد جئت به من بيتى الليلة قبل الماضية يا مستر هارفى .

وامسك سونى الارنب من اذنيه وهو يريح جسده على بطن ذراعه. وناضل الارنب برهة ليتخلص من يده ويهبط كى يقضم الحشائش النامية بغزارة فى الدغل . واعاده سونى الى قميصه وزرره .

وقال هارفى بقلق وهو يجذب قبعته بقوة فوق عينيه :

ـ لست ادرى . اننى فقط لا ادرى !

وساله الصبى فى أمل :

ـ ما هذا الذى لا تدريه يا مستر هارفى ؟

ولم يجبه هارفى . وعاد الى الطريق ناظرا الى المنحدر فترة طويلة من الزمن . ولم يتحرك سونى من مكانه .

كان من الصعب عليه أن يستقر على رأى . فكان يقول لنفسه فى البداية انه رجل ابيض . ثم يعود فيحملق فى وجه سونى الاسود . وبعد ذلك ينظر الى الحقول فى الارض المنبسطة ويتساءل عما سيحدث عندما ينتهى الامر كله . سوف يضربه الغوغاء المتعطشون للمطاردة على ظهره ويكيلون له المديح لاعتقاله الزنجى بمفرده . ولكنه يعلم انه بعد أن يشنق الصبى ، سوف يكره نفسه على الأغلب مادام حيا . وتمنى لو انه ظل بالبيت .

وتساءل سونى فى حزن :

ـ مستر هارفى .

واستدار على عقبيه فى غضب .

ـ مستر هارفى ، ارجوك يا سيدى . دعنى أختبىء فى منزلك . سأذهب الى المخزن وافعل كل ما تقوله ، ارجوك يا سيدى مستر هارفى، لا تدعنى اذهب الى حيث يوجد ذلك الجمع من الرجال البيض !

وانهى هذا كل شىء . انه لا يمكن أن يسمح لنفسه باخفاء زنجى فى الوقت الذى يقلب فيه نصف سكان مقاطعة جولى الذكور البلاد رأسا على عقب بحثا عنه .

فقال بخشونة مخاطبا سونى :

ـ تعال . تعال من هذا الطريق .

وبدأ يسير فى الطريق . وبعد ان سار بضع خطوات سمع صوت سونى فى اعقابه . ولم يلتفت الى الخلف .

وسارا فى الطريق المتدرج متجهين نحو الطريق الرئيسى الواقع عند قاعدة المنحدر . وكانت المسافة بين البقعة التى بدآ منها السير وبين نقطة الالتقاء بالطريق تبلغ حوالى نصف ميل . ولم يتلفت هارفى حوله لينظر الى سونى حتى قطعا نصف المسافة . وكان يستطيع أن يسمع وقع قدمى سونى الحافيتين عندما تدوسان ورقة شجر جافة او غصنا فى الطريق . وكانت بقية المسافة التى قطعاها لاتدل على انه ينوى أن يفعل ما طلبه منه سونى .

وتوقفا عند حافة أرض جرداء . ومرت عدة سيارات في الطريق الرئيسى المترب ذاهبة وآيبة وهى تنطلق بسرعة كبيرة . وكان الغبار معلقا فى الهواء فوق الطريق كأنه بساط .

واستدار هارفى على عقبيه ووجه الى سونى نظرة ثابتة .

وتساءل فى غضب :

ـ لماذا قالت مسز نارسيسا كالهون انك فعلت ذلك اذا لم تكن فعلته؟.

ولم تكن هى الوحيدة التى قالت ذلك . هناك اثنان آخران قالا نفس الشىء .

وكان هارفي غاضبا ، ولكنه لم يدر ماالذى جعله يشعر بذلك . وأخذ يرقب وجه سونى .

وقال سونى بلهفة :

ـ مستر هارفى ، اننى لا اعلم لماذا يقـول البيض اننى فعلت ذلك فى حين اننى لم أفعله . لقد كنت أسير فى الطريق أفكر فى شـئونى الخاصة عندما اندفعت مس كيتى من بين الاشجار وتعـلقت بى . ولست ادرى لماذا فعلت هذا . لقد حسبتها فقدت صوابها . وبدأت تقول انهـا لن تخبر عنى احدا . وحاولت أن أسألها عن ذلك الذى لن تخبـر احدا عنه ، ولكنها لم تصغ الى ما اقول . وكنت أعلم طول الوقت انه ليس من شانى على الاطلاق أن أقف هكذا وأتحـدث الى فتاة بيضاء . ولكننى لم استطع أن أفعل شيئا ازاء ذلك . فقد تعلقت بى ولم تتركنى . ولم تلق الى بالا على الاطلاق . وحاولت أن ابتعد عنها ، ولكنها ازدادت تعلقا بى حتى اصبحت لا استطيع أن افعل شيئا . وكلما تحـركت كانت تدفعنى بطريقة لا اعلم مثيلا لها . وكنت أريد ....

ـ هل كانت تعلم من أنت ؟

ـ أجل ياسيدى . كانت تعلم اننى سونى ، لانها استمرت تنـادينى باسمى . وعندئذ جاءت مسز تارسيسا كالهون والواعظ فيلتز فى السيارة ووقفا بجانبى مباشرة . ولم تقل مس كيتى ابدا اننى سببت لها أذى . ان مس كيتى لم تقل شـيئا . ولكنها تصرفت كمـا لو كانت تريد أن تفر ، مثلما فعلت أنا تماما . وعندئذ امسكت بها تلك المرأة البيضاء ولم تطلقها . وطرحنى الواعظ فيلتز ارضا وأبقانى فى ذلك الوضع . وعندئذ جعلت تلك المرأة البيضاء مس كيتى تقول ذلك . وجعلتها تستمر فى قوله. ثم قالت للواعظ فيلتز أن يدعنى أفر ولكنها استمرت ممسكة بمس كيتى ولم تدعها تجرى . هذا ماحدث يامسـتر هارفى . ولو كان الله الرحيم نفسه هنا ليتحدث عنى لكان هذا ما سيقوله يا مستر هارفى . وانت تعلم تماما انه لا يكذب ، اليس كذلك يا مستر هارفى ؟

ونظر هارفى بعيدا محولا بصره عن الصبى . ولم يدر كيف يفكر فى الامر . لقد ازداد اقتناعا أكثر من اى وقت مضى انه لا يمكن ان يحمـل سونى مسئولية ما حدث . وكان يعلم انه لو كان سونى اكبر سنا ببضع سنوات ، أو لو انه كان قد اشترك فى متاعب من هذا النوع من قبـل لما تردد لحظة واحدة ، فقد كان عندئذ سيقتاده الى احدى الاشـجار ويربطه اليها حتى يتمكن من ابلاغ الرجال انه قضى ليلتين ويوما بحثـا عنه .

ـ لو اننى لم اسلمك للرجال البيض الذين ظلوا ينقبون فى البـلاد بحثا عنك منذ أول أمس ، فسوف يسموننى محبا للزنوج عندما يكتشـفون اننى اطلقت سراحك .

وتردد وهو يفحص الأرض بطرف حذائه . واستطرد :

ـ بل ربما عملوا على ابعادى عن البلاد . لقد استقر رأى هؤلاءالرجال هناك على شنقك . ولست أعلم أنه يوجد فى العالم الواسع بأسره شيء يمكن أن يوقفهم عن عمل ذلك بعد الآن .

فتساءل سونى فى ارتباك :

ـ ماذا تقول يا مستر هارفى ؟

وبدأ هارفى يسير فى الطريق دون أن ينظر خلفه . وقفز فوق حفرة فى الحقل وأسرع مخترقا دغلا من الاعشاب الجافة وتبع الارانب . وتعلق سونى بأذياله على بعد يقل عن نصف قدم .

وعبر الحقل الضيق غير المحروث وتوقف . وكان سونى بجواره ينظر الى وجهه . وظل هارفى مطرقا برأسه فى سكون عدة لحظـات قبل ان يستطيع الكلام .

وبدأ يقول وهو يحاول جهده أن ينظر أثناء حديثه الى وجه الصبى الملون :

ـ اننى أبغض ما سأفعله يا سونى الى حد يجعلنى أشعر بالتعاسة.

ولكن هذه بلاد الرجل الابيض . وعلى الزنوج ان يتلاءموا دائما مع هـذا الوضع ، وانا اعلم انه لا يوجد شيء يمكن ان يوقف هذا الآن . واعتقد ان هذا هو الوضع الذى تتخذه الأمور .

ولم يقل سونى شيئا . ولكن عينيه كانتا تدوران فى محجريهما الى حد بدا بياضهما معه كنوارة قطن لم تلطخها اية أوساخ . وكان قد أدرك معنى ما قاله هارفى .

وسارا فى اتجاه الطريق وهما يخفضان رأسيهما اثناء مرورهما تحت الفروع المنخفضة لاشجار الجوز ، ويشقان طريقهما في حرص بين الاعشاب النامية على جانبى الطريق .

وهمس سونى فى صوت منخفض :

ـ مستر هارفى .

وتوقف هارفى واستدار الى الخلف . وكان يعلم انه استقر على رأى، ولكنه لم يكن يدرى ماذا سيفعل لو أن الصبى اندفع فجأة بين الأحراش .

ـ ماذا تريد يا سونى ؟

ـ مستر هارفى ، هل تسمح يا سيدى بأن تؤدى لى امرا صغيرا ؟

ـ ماذا ؟

وخطا سونى الى الامام وهو يزيح الأغصان بذراعيه القويتين السوداوين ونظر اليه بضراعة :

ـ مستر هارفي ، اذا كنت تعتقد أنه يجب أن تفعل ماقلت فسـأكون شاكرا لك الى حد كبير لو انك رميتنى بالرصاص بدلا من تسليمى الى كل اولئك الرجال البيض .

ولم يجد هارفى أية كلمات يقولها . ووجه الى الغلام نظرة غريبـة ، وهو يحس كانه لم يره أبدا من قبل طوال حياته ، وبعد ذلك لم تعد عيناه قادرتين على رؤية ما ينظر اليه ، ثم استدار مبتعـــدا . وكانت قدماه تتحركان فى الطريق وتحملانه معهما .

ـ الن تفعل هذا يامستر هارفي ؟

ـ لا استطيع يا سونى .

ـ لماذا يا مستر هارفى ؟

فهز رأسه من ناحية الى الأخرى ، وكل عضلة فى رقبته تؤلمه .

فكرر سونى قوله فى ضراعة :

ـ لماذا يا مستر هارفى ؟

فقال وهو يتعثر فى الطريق :

ـ ليست معى بندقية استعملها فى ذلك .

الفصل الخامس عشر

لم يكن الوقت قد بلغ منتصف الضحى عندما ابتعد جيف وبرت بسيارتهما عن نيدمور ، ولكن اليوم بدا لجيف كاطول يوم مر به فى حياته . وكان جيم كوتش قد ارسل الى اندروجونز رسالة شفوية غير محددة للقاضى بن الان . وكاد جيف ، بعد ليلة قضاها فى تجوال مرهق دون نوم أو طعام ، قد استسلم لقضائه ، ومع ذلك فقد كان ينزوى فى ركن من ذهنه امل فى ان انتخابه سيعاد ، باحدى المعجزات ، عندما تحصى الاصوات .

وانطلقا في الطريق في صمت . وكان سطح الطريق غير المعبد خشنا مليئا بالحفر . وكانا بين الحين والآخر يصطدمان باحدى الحفر فتقرقع السيارة وتهتز حتى يكاد يبدو لهما انها ستتحطم . وعندما اصبح جيف لا يحتمل أكثر من ذلك ، طلب من برت أن يبطىء سيره .

وقال برت :

– اننى اراهن على انه قد مرت فى هذا الطريق فى اليومين الماضيين سيارات اكثر عددا من تلك التى مرت طوال العام منذ يناير .

– سوف انبه مدير الطرق الى ان يرسل بعض آلات الرصف الى هنا لاصلاحه بعد أن تنتهى عملية الشنق هذه .

وفى ذلك الوقت ، وعند منحن فى الطريق ، كادا يصطدمان برجل يركب بغلا . وكان ذلك الرجل فلاحا متجها الى نيدمور ومعه سلة بيض يريد أن يبيعها .

واوقف برت السيارة فى الوقت المناسب . ولم يتمكن الفلاح ،واحدى يديه فقط هى الطليقة ، من أن يدير البغل الى جانب الطريق ، وانحرف برت بالسيارة الى احد الجانبين .

وقال الرجل وهو يوقف البغل :

– كيف حالك . انت الشريف جيف ماكيرتن ، اليس كذلك ؟

فقال جيف وهو يغتصب ابتسامة :

– كيف حالك . اعتقد اننى الشريف ، على الاقل الى ان تجرى الانتخابات . فاذا حصلت على اصوات عدد من الفلاحين الظرفاء أمثالك فاعتقد اننى سأستمر فى منصبى . لمن ستعطى صوتك هذا العام ؟

فقال الرجل وهو ينقل سلة البيض من احدى يديه الى الأخرى :

– لم احدد بعد . اذ على أن أزن الامور في ذهنى كما أفعل دائما قبل ان ادلى بصوتى .

فقال جيف وهو يزيد من حجم الابتسامة المرسومة على وجهه :

– حسنا ، اننى دائما أعجب بالناخب الذى يتحدث بهذه الطريقة ، فعلى الناس أن يتاكدوا من السياسى الذى يضعونه فى احد المناصب . ففى مرات عديدة ينتخب الشخص غير المناسب ويعانى عامة الناس من ذلك .

فاومأ الفلاح برأسه . واعاد سلة البيض الى يده الأخرى ثانية . واستدار مشيرا برأسه الى الطريق من خلفه :

– لقد رأيت شيئا غريبا منذ برهة ، على مسافة تقرب من نصف ميل الى الخلف . وكنت ساتحدث عنها عندما اصل الى نيدمور .

فساله جيف وهو يستقيم فى مقعده :

- ماذا رأيت ؟

فقال :

- زنجيا . انه امر غريب ، ولكنى رأيت زنجيا لم اره هنا من قبل . وكان يبدو لى انه احد زنوج الجيتشى . ولكن الغريب فى الأمر أنه كان زنجيا على اية حال . وهو اول زنجى اراه منذ اول أمس عندما لجا كل واحد منهم الى الغابات العميقة .

فسأله جيف وهو يكاد يقفز من مقعده :

- أين رأيته ؟ اين هو الآن ؟

وهز الفلاح رأسه .

- كان يقف هناك فى بقعة جرداء من الارض بجوار الطريق عندما رأيته لأول مرة . وقد تصرف وكأن به ذهولا ، فانه لم يفر هاربا على الاطلاق . وقد قلت له شيئا ، ولكنه تصرف كما لو كان لم يسمعنى . هذا هو الشيء الذى اعتقدت انه شاذ . اننى لم ار ابدا من قبل زنجيا يتصرف بهذا الشكل .

وبدأ جيف يلكز برت بكوعه ، وهو يتمايل فى نفس الوقت بجسمه الى الأمام والى الخلف ، وكانما هو يحاول ان يجعل السيارة تتحرك قبل ان يدور المحرك .

وقال وهو يلكز برت بشدة بين ضلوعه :

- يجب أن ابحث هذا الأمر ! اسرع يا برت اسرع !

وانطلقا بسرعة فى الطريق دون ان يحفلا بوعورته . وتعلق جيف بالباب بكلتى يديه . وكان بين الحين والآخر يستدير لينظر الى برت بنفاد صبر لم يستطع أن يتحكم فيه .

وقال منفعلا :

- انه سام فعلا . لا أحد غير سام . انه سام نفسه فعلا !

وكان يسيران بسرعة خمسين ميلا فى الساعة . ولكن جيف كان لايزال غير راض عن هذه السرعة ، فلكز برت بكوعه بين ضلوعه مرة أخرى . وقال وعيناه تلمعان فى عصبية :

- انك تعلم ما أنوى عمله يا برت ؟

- ماذا يا شريف جيف ؟

- سوف أستصدر من المحكمة حكما بأن سام غير متمالك قواه العقلية . وعندئذ لن يزعجه أحد بأية مطالب . وسوف يكون طليقا فى هذا العالم يفعل بالسيارات القديمة ما يشاء ، ولكنه لن يعد مسئولا عن تصرفاته . هذا ماسوف افعله ! وسوف استصدر هذا الحكم بمجرد عودتى الى المدينة !

وضغط برت على الفرامل وهو يوقف السيارة التى أحدثت صريرا عاليا . وعلى بعد عشرة اقدام كان يقف سام برنسون وهو يحملق فيهما فى ارتباك . وقفز جيف من مكانه بأسرع ما يمكنه . وارتجف جسد سام وكانه مصاب بالحمى . وكانت سترته ممزقة الى درجة بدت معها وكأنها قد صنعت من جمع بعض الخرق الى بعضها .

وصاح جيف وهو يرمى بجسده الى الأمام ويندفع مخترقا الأعشاب النامية على جانب الطريق :

- عليك اللعنة يا سام ، فى أى مكان من العالم كنت طول هذا الوقت !

واندفع سام الى الوغل الواقع خلفه . وغاب عن البصر بعد برهة .

وصاح جيف وهو يندفع دون وعى نحو السلك الشائك :

- سام ! انتظر لحظة يا سام !

وجرى برت الى جانب جيف .

وقال برت :

ـ قف مكانك واهدأ ياشريف جيف . فربما استطعنا أن نسمعه .

واصغيا فى انتباه ، وهما يلويان أعناقهما ، ويباعدان مابين أوراق الشجر فى حذر .

وتساءل صوت رفيع خائف :

ـ أهذا أنت يا مستر جيف ؟

ـ انه انا يا سام ! لاشىء يثير الخوف الآن . اخرج من مكانك !

وانتظرا ، ولكن سام لم يظهر .

وصاح جيف بصبر نافد :

ـ لقد سمعتنى أيها الوغد الأسود ! اخرج الى هنا قبل أن اطلق عليك النار . اننى انظر اليك مباشرة . انك لن تستطيع الاختباء منى .

وبدأت الشجيرات تهتز على مسافة عشرين قدما . وتقدم سام الى الأمام بوصة بعد بوصة .

ـ أين كنت كل هذا الوقت يا سام ؟

ـ لا تسألنى يا مستر جيف . اسـألنى فقط أى مكان لم اذهب اليه . لم يحدث فى حياتى من قبل كل هذا الاضطراب .

وانحنى فى ذلة امامهما وعيناه محمرتان بلون الدم .

وقال له جيف :

ـ اننى متأكد من انك عانيت كل هذا .

ـ وكان سعيدا لرؤية الزنجى لدرجة انه احس برغبة فى أن يتجه اليه ويتحسسه ويتأكد انه رجل حقيقى وعلى قيد الحيـاة . وقال فى زمجرة مفتعلة :

ـ لقد بحثت عنك فى كل مكان . أين كنت ؟

وبدأ سام يرتجف وذكرى الساعات الطويلة الماضية تعاوده .

ـ مستر جيف ، لقد كاد أولئك الرجال البيض أن ينتزعوا الحياة منى .

ـ ووجه بصره الى قدميه . وكان نعلا حذائه قد فقدا وتعلق الجزء العلوى من الحذاء حول كاحليه .

واستطرد قائلا :

ـ لقد طاردونى بين الادغال بعد أن علقوا في عنقى حبلا . وكلما تعبوا من ذلك ، ربطونى فى مؤخرة احدى السيارات وجرونى فى الطريق . وكانوا يجرون نصف الوقت بسرعة كبيرة لدرجة اننى لم اكن أتمكن من مسايرتهم ، فكنت أزحف على الأرض . وكنت أعتقد ان نهايتى قد دنت الى ان وجدوا سونى كلارك هذا منذ فترة وجيزة فاطلقوا سراحى .

فصاح جيف فى الزنجى :

ـ وجدوا من ؟

ـ اجل يا سيدى الشريف جيف . لقد وجدوه واطلقوا سراحى . وكان ذلك منذ برهة ، وأعتقد ان ذلك الصبى الأسود قد هلك الآن .

فسأله :

ـ أين ؟

ـ هناك عند الطريق حيث تنمو أشجار الصفصاف .

وأخرج جيف ساعته ونظر فيها ، ودفع فيها اصبعه وكأنه يحاول أن يحرك عقاربها الى الأمام .

وقال ناظرا الى الشمس يقارنها بساعته :

ـ لقد مضى الصباح ولن يمر وقت طويل حتى يحين موعد الغداء .

وأعاد جيف ساعته الى مكانها واتجه الى السيارة . وسار برت بجواره .

وقال سام برقة :

ـ مستر جيف ، ماذا ستفعل بى ؟

فاستدارا الى الخلف وشاهداه يتراجع الى الدغل .

وقال جيف :

ـ تعال هنا أيها الوغـد الأسود . اننى لا اريدك أن تغيب أبدا عن بصرى مرة اخرى . اركب السيارة . سأعيدك الى السجن سالما .

وركبوا السيارة جميعا . وتكوم سام على الأرض فى مؤخرة السيارة بدلا من ان يجلس على المقعد .

وبعد أن قطعوا ميلين أو ثلاثة نادى سام فى صوت خفيض .

فقال جيف :

ـ ماذا تريد يا سام ؟

ـ نسيت ان اخبرك بأمر الأرنب .

ـ اى ارنب ؟

فقال وهو يتعثر فى الكلمات :

ـ انا نفسى لا اصدقه ، ولكننى رأيته .

ـ رأيت ماذا ؟

ـ عندما قبض اولئك البيض على سونى قفز من قميصه ارنب ، وكأنه يخرج من بطنه . ولكنه لم يقفز اكثر من قفزتين قبل ان يطلقوا عليه النار ويمزقوه اربا . والآن يامستر جيف ، اننى لااريدك أن تصدق هـذا ، لاننى بدورى لا أصدقه . ولكنى شاهدته بعينى .

والتقت أعين برت وجيف ، ولكن احدا منهما لم يقل شيئا . ولوى جيف جسمه فى مقعده ونظر الى سام المكوم على الارض ، ثم استدار وظلت عيناه بعد ذلك تنظران الى الطريق امامه .

وقبل أن يصلوا الى جسر فلورى برانش بقليل مرت بهما سيارتان تهدران فى الطريق ، مثيرتين سحابة من الغبـار الأصفر الخانق . وكانتا تنطلقان بسرعة كبيرة الى حد كان من المستحيل معه تمييز أى من الرجال داخلهما .

وقال برت :

ـ يبدو أنهم انتهوا ، كما قال سام .

وقال جيف :

ـ اذا كانوا قد فعلوا هذا حقا ، فاننى اشكر الظروف لاننى انقذت واحدا من الاثنين .

وعلى بعد مائة ياردة من الجسر شاهدوا عشرات السيارات تقف فى الطريق وتسده ، بينما وقفت سيارات اخرى بين الحشائش النامية الى جانب الطريق .

ووضع جيف يده على ذراع برت فاوقف السيارة . وبعد برهة اشار الى برت ليبعد السيارة عن الطريق الرئيسى الى مكان لا يمكن مشاهدتها منه

بسهولة . ونظر سام من فوق المقعد بقلق عندما شعر بان السيارة لا تتحرك . وغاص فى مكانه مرة أخرى وهو يتاوه .

وقال برت بقلق :

ـ اننا لا نستطيع ان نفعل شيئا دون ان يعاوننا احد . ومن الأفضل ان نذهب الى المدينة ونجمع ....

فقال جيف :

ـ لا حاجة الى ذلك الآن . لقد انتهوا يا بنى .

وقاد برت السيارة الى أحد الأدغال حتى اصبحت بعيدة تقريبا عن ابصار من فى الطريق . وهبط جيف من السيارة ونظر من بين الشجيرات نحو دغل اشجار الصنوبة الواقع على ضفة الغدير .

وهمس لبرت الواقف بجواره :

ـ لقد انتهوا من الأمر كما قلت لك .

واستطاعا أن يريا جسد الفتى الزنجى يتأرجح ، بعد أن فقد الحياة ، من غصن شجرة انتزعت أوراقه بواسطةالرصاصات التى أطلقت عليه.وكان لا يزال هناك أربعون أو خمسون رجلا على الأقل واقفين فى جماعات صغيرة حول الشجرة . وكان رجال آخرون يغادرون المكان . وسمع صوت سيارة أو اثنتين تبارحان مكانهما بالقرب من الجسر .

وقال جيف بحزن :

ـ ان الشىء الوحيد الذى يمكن عمله الآن هو أن نرسل محقق الجنايات الى هنا . ليس هناك ما يمكن عمله الآن يا بنى .

وقبض برت على ذراعه .

وقال :

ـ لعل من الأفضل أن نسجل بضعة أسماء لنقدمها فى حالة ما اذا أراد القاضى بن الان اقامة دعوى .

وفوجىء جيف ، وقال بحزم :

ـ لا ، لست أريد أن أتورط فى هذا الأمر من الناحية السياسية . أن الناس ....

ولكن ....

واتجه جيف الى السيارة تاركا برت بين الشجيرات . وبعد لحظات سمع برت يناديه فى همس مرتفع :

ـ تعال الى هنا سريعا يا شريف جيف .

وعاد جيف ليرى ماذا يريد منه .

وأشار برت فى الاتجاه المعتاد عند الغدير وقال :

ـ انظر !

وكانت كيتى بارلو تخوض بين الأغصان فى الجانب الآخر . ولم يرها حتى ذلك الحين أى من الرجال الواقفين عند الشجرة ، ولكنها كانت قد اصبحت على مسافة منهم تقل عن اثنتى عشرة ياردة . ثم توقفت ورفعت بصرها الى جسد سونى وهو يدور ببطء حول الحبل .

وصرخت بأعلى صوتها . واستمر صدى الصرخة المفاجئة يرن فى الغابات الهادئة ما يقرب من دقيقة . ثم جرت الى الأمام ، وقالت :

ـ انها كذبة ! انه لم يفعل هذا !

وما أن انتهت من كلامها حتى اخذت تصيح صيحات هستيرية .

وعاد الرجال الذين كانوا قد وصلوا الى الجسر يجرون نحو الشجرة . اما الذين كانوا هناك فقد وقفوا مكانهم وكأنهم فى غيبوبة .

واستطاع برت أن يسمع جيف وهو يبتلع ريقه ست مرات .

وصاحت كيتى وهى تجرى من جماعة الى أخرى تضرب الرجال بقبضتى يديها :

ـ لماذا لا تصدقوننى ! انه لم يفعل ذلك ! لا أحد فعل ذلك ! لقد كانت كذبة !

وتوقف الجسد المعلق فى الحبل عن الدوران برهة ، ثم بدأ يدور ببطء فى الاتجاه المعاكس . ورفع اليه بعض الرجال ابصارهم محملقين فيه وكأنهم لم يروه من قبل .

وصرخت كيتى :

ـ ان احدا لم يفعل هذا !

وكانت مشعثة الشعر ملطخة بالطين ، تبدو وكانها خاضت فى الطين طول الليل .

وقالت :

ـ لقد كانت كذبة ! هذا ما اقوله لكم !

وكان الرجال قد تجمعوا حولها فى شبه دائرة ، يكادون ان يحجبوها عن الأبصار . ولم يتمكن برت أو جيف من رؤيتها برهة .

وصاحت :

ـ اسالوا ليروى لوجيت ! انه يعلم انها كذبة ! اسالوه ! ان ليروى يعلم !

واندفعت الى الشجرة التى علق فيها جسد الصبى . وتحرك الرجال على الأرض يتبعونها .

وصاحت فى الرجال بخشونة :

لماذا لا تذهبون وتبحثون عن ليروى لوجيت وتسالوه ! سوف يخبركم انها كذبة ! انه يعلم ! انه يعلم ! انه يعلم !

وسادت فترة صمت فى كل مكان فى الغابات . وكانت الأصوات الوحيدة التى سمعها جيف وبرت هى الأصوات الخافتة داخل حلقيهما ، واخذ الرجال يقتربون من الشجرة ، ولم يستطع جيف وبرت أن يريا غير لمحات منها بين الأجساد المتحركة .

وملأت الغابات صرخة ثاقبة ، تلاها هدير من الأصوات الغاضبة . واندفع عصفور بجراة بين اغصان شجرة قريبة وصرخ صرخة حادة ثم اختفى فى اتجاه ايرنشوريدج .

وهمس جيف وهو يرتجف :

ـ ماذا يجرى هناك يابرت ؟

فقال برت فى عجز :

ـ اننى لا استطيع رؤية شىء .

ـ لو انها فى خطر فعلينا ان نحميها .

ثم توقف عن الحديث ، واستانف قائلا :

ـ ولكنهم لن يصيبوها باى أذى ، أليس كذلك يابرت ؟

فتردد برت وهو يتعلق باحدى الشجيرات بيده ، وقال :

ـ لا يبدو أنهم سيؤذونها ، الا اذا كانوا قد انقلبوا الى ....

واستند جيف بصدره الى أقوى الأشجار الصغيرة . وكان العرق يتصبب من جبهته ووجهه .

وصرخت كيتى مرة اخرى ، ولكن صوتها كان ضعيفا واهنا . وكما تجمع الرجال سريعا ، عادوا فانطلقوا نحو الجسر ، وهم يدفعون بعضهم بعضا ، ويطلقون السباب . ورأى برت وجيف لاول مرة الاحجار تتطاير فى الهواء . وعندما اصابها حجر هوت على الأرض دون أن يصدر عنها صوت .

وقبض جيف على ذراع برت وهو يترنح على قدميه ، ولم يستطع اى منهما ان يتكلم .

واستدار أحد الرجال فجأة وجرى الى الخلف وصوب نحو جسد كيتى الساكن حجرا ثقيلا . وجرى نحو الجسر وهو ينظر من فوق كتفه .

وبدا جيف يقول :

ـ برت ....

وتحركا مخترقين الشجيرات فى الوقت الذى كانت أصوات محركات السيارات الهادرة تندفع فيه داخل الدغل . ووصل برت الى الشجرة قبل جيف بوقت طويل . وركع على ركبتيه ، ورفع كيتى ، وكان يمسك بها بين ذراعيه عندما توقف جيف عند الشجرة .

وقال برت بصوت جعله رقيقا على قدر ما يستطيع :

ـ كيتى ...

وفتحت عينيها ونظرت اليهما من بين خصلات شعرها المشعث . وازاح برت الشعر من على وجهها .

وارتسمت على شفتيها ابتسامة واهنة .

وقالت بضعف :

ـ أخبر ليروى ...

وتلاشت الابتسامة .

وارقدها برت فوق كومة الأحجار باكبر قدر يستطيعه من الرقة ، ثم وقف وعيناه تبحثان عن عينى جيف .

وقال :

ـ شريف جيف ، ان رأسها يشبه ....

وتوقف عن الحديث موجها الى الرجل الكبير نظرة غريبة :

ـ ان رأسها ...

وأومأ جيف براسه وهو يدير وجهه بعيدا . وسار حتى ضفة الغدير ووقف يتأمل الماء وهو ينساب تحت كتلة من الشجر سقطت فيه .

وعندما استدار ونظر نحو الشجرة ، رأى برت يقف كالمذهول بجوار جسد الفتاة ، بينما كان الجسد الأسمر فى أعلى يدور ويدور عند طرف الحبل . ووضع جيف يده على وجهه وهو يدلك عينيه الملتهبتين .

وغادر الغدير الذى كان يقف بجانبه .

وقال وهو يسير مبتعدا :

ـ يجب أن يضع هذا حدا الى الأبد لشنق الملونين .

وجرى برت ولحق به .

ـ ماذا قلت يا شريف جيف ؟

فقال بوضوح اكثر :

ـ لا شىء يا بنى . علينا ان نسرع بالعودة الى المدينة ، ونعد تقريرا بما حدث . فمحقق الجنايات يريد أن يعرف ماذا حدث . ان واجبه يقتضيه

التحقيق فى أسباب الوفيات التى من هذا النوع . انه يريد ان يعرف كل ما يتعلق بهذا الأمر حتى يستطيع ان يؤدى واجبه كما يراه دون خوف او مصلحة .

وسار نحو الطريق متخبطا .

وقال بصوت مرتفع :

ـ هذا قسم عظيم يقسمه رجل يعمل فى الوظائف العامة ، واعتقد اننى نسيته .

وسار الى الأمام وحده .

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة

قدمت لك خلال الشهر الماضى

- **التسجيل والبحث الجنائى الفنى**
  بقلم سالم على هيكل
- **الكلمات**
  بقلم جان بول سارتر ترجمة الدكتور خليل صابات
- **الفيلم وأصوله الفنية**
  بقلم رايموند سبوتزوود ترجمة محمد على ناصف
- **المذاهب الوجودية**
  بقلم ريجيس جوليفيه ترجمة فؤاد كامل
- **البرىء**
  بقلم جابرييلى دانونزيو ترجمة طه فوزى

وتقدم لك خلال الأيام التالية :

- **ضريبة الأرباح التجارية والصناعية فى القانون المصرى**
  بقلم الدكتور أحمد ثابت عويضه
- **شعراء الوطنية فى مصر**
  بقلم عبدالرحمن الرافعى
- **الجلسة سرية**
  بقلم عبدالمنعم الجداوى
- **السماء السوداء**
  بقلم محمود السعدنى
- **ملامح مصرية فى المسرح الاغريقى**
  بقلم الدكتور على نور

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

العدد القادم

أنستاسيا

تأليف : هانز نوجلى

ترجمة : السيد وفائى

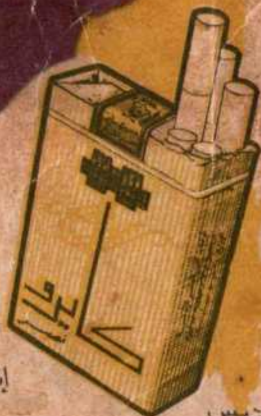


قريبا

دكتور كلدار

ماكس براند

ترجمة : أحمد عادل



دار الكاتب العربى للطباعة والنشر